مريم والأبواب السبعة

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: مريم والأبواب السبعة**

❖ **المؤلف: جيهان سعد الدين**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1442 هـ - 2021 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 4428 / 2021**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 4 - 032 - 994 – 977 – 978**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00455**

❖ **مراجعة لغوية وتدقيق: ببلومانيا**

❖ **الغلاف: ببلومانيا**

❖ **التنسيق الداخلي: ببلومانيا**

❖ مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (١): ١٥ شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (٢): ٢٩ شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: ٠٠٢٠٢٦٣٣٧٨٥٥ - ٠٠٢٠٢٦٠٦٤٥١٨

❖ محمول: ٠٠٢٠١٢٠٨٨٦٨٨٢٦ – ٠٠٢٠١٠٣٠٥٠٤٦٣٦ – ٠٠٢٠١٢١٠٨٢٦٤١٥

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

جميع الحقوق محفوظة ©

مريم والأبواب السبعة

رواية

جيهان سعد الدين

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
www.bibliomaniapublishing.com

2021

جميع الحقوق محفوظة ©

إهداء إلى روح أخي التي رحلت إلى العالم الآخر ،
إلى تلك الروح التي انتزعت روحي بفراقها ،
إلى الروح التي علمتنى كيف أغمض عيناي
عندما كان يحكي قصص ألف ليلة وليلة تحت مظلة السماء المرصعة بالنجوم.
إلى الذي علمني كيف أستمتع بالموسيقى عندما تغوص شمس الأصيل وتغني أم كلثوم ،
إلى تلك الروح التي علمتني أن الطيبة والأخلاق ثمنهم غالي،
و أنني الوحيدة القادرة على إنقاذ نفسي، وأن أتخذ القرار.

***

الجزء الأول

مريم والأبواب السبعة

المقدمة

أطلقت العنان لخيالي وبت أضع الحكاية تلو الأخرى؛ لعلني أجد الراحة بين سطور خيال رسمته بعقلي.

حيث العالم الذي أخلق فيه شخصيات من نسج خيالي.

وأسطر ما أحلم به بين السطور. عالم أهرب إليه من بشاعة البشر. أرسم فيه بشاعتهم وتحالفهم مع شهواتهم ضد مبدأ الله بالأرض. عالم أبنيه من كلمات ومشاعر اختلطت كلها، فأصبحت أبحث عن الدر المكنون بخيالي. وفرد الخيال أجنحته حتى عشت أحداث تلك الرواية، وكأنني بطلتها، أو واحدة من هؤلاء المعذبين بالأرض، أو واحدة من جنيات النور الذين يرسمون البهجة، أو واحدة من تلك التي تلهم الشعراء بقصص الغرام.

***

الظلال

بالصباح جلست أحتسي قدح الشاي بالشرفة، وإذا بالذكريات تداهم عقلي، و تأخذني بعيدا إلى الطفولة، إلى حيث الأبواب المغلقة، إلى تلك الليلة عندما كنت بالسادسة من عمري، كنت بحالة من الأرق، أنام بغرفتي أنا وأختي على سرير واحد.

كانت الغرفة تطل على صحن البيت الواسع حيث يتخلل ضوء القمر من نافذة بالباب. كانت تؤرقني تلك المسألة الصعبة بالحساب. كانت كمن تحدثني وتتحاور معي بكل الحلول، وعقلي الصغير لا يستوعب كل هذه الألغاز وكأنها تتحداني أن أجد حلا لها؛ فأبحث بعقلي الصغير عن كل المعطيات وأرتبها بكل شكل، ولكن جذبتني تلك الظلال التي تتأرجح من خلف النافذة بأزرع طويلة؛ تنخفض تارة، وترتفع تارة أخرى .

نفسي تحدثني أنها خيالات عقلي أو أنها ظلال أشجار تحركها رياح الليل، و يعكسها ضوء القمر. تغاضيت عنها لفترة ورجعت أبحث بعقلي الصغير عن حل لتلك المسألة اللعينة فقد جعلت النوم يهرب بعيدا عن جفوني، ولكن تلك الظلال كانت تبعث الخوف بقلبي وهي تمتزج بضوء خافت بالليل.

هرعت إلى السرير وغطيت رأسي بالغطاء، وأنا أهمس من الخوف لأختي لكي تستيقظ، ولكنها تغط بنوم عميق، ولا يستطيع همس صوتي المرتجف أن يصل إلى أذنيها؛ فانزلقت تحت الغطاء إلى أن غلبني النوم، وغصت فيه كما تغوص الأحلام ببحر الذكريات.

جاءت أمي بالصباح توقظ النائم، فقفزت من نومى إلى حضنها الدافئ ألوذ إليه من خوف سري بأوصالي الصغيرة، وتمكن الهلع من قلبي .

إنها الظلال، وما تكون ؟؟

فجائنى صوت أمي وهي تربت على كتفي بحنو، وتقول:

ماذا بك حبيبتي؟

قلت إنها الظلال يا أمي، وشرعت أحكي لها عن تلك الخيالات، وذلك الخوف الذي سرى بقلبي إلى أن كاد يتوقف .

وهالني ما قالته أمي، إياك أن تفتحي الباب!!

أو تستجيبي لتلك الأصوات مرة ثانية، وكوني على حذر.

ازداد ذلك الخوف وسرت رعشة خفيفة باردة بأوصالي، وزادت تلك التساؤلات، وقلبي وعقلي لا يدرك كنه تلك الأشياء.

أحاطتني أمي بذراعيها وهي تتمتم بآيات من القرآن.

إستيقظت أختى الصغيرة أيضا، وتسارع كل منا إلى غسل وجهه وتناول طعام الإفطار، ونسيت ما قالته أمي، وكنا نمرح ونلعب طوال اليوم إلى أن جاء وقت النوم؛ فاستلقيت على السرير، وأختي تنام، وكأنها ملاك بأجنحة بيضاء؛ أنظر إلى وجهها الطفولي، وأطبع قبلة على جبينها الصغير.

استيقظت فجأة بجنح الليل وكأن يدا أيقظتني من نومي فنظرت بجواري ولكنى لم أرَ شيئا؛ فوجهت ناظري إلى زجاج الباب وإذا بالظلال تتحرك وترفع تلك الأذرع الطويلة وتخفضها مرة أخرى والباب يهتز ببطء فاستجمعت شجاعتي حتى أصل إلى الباب، و أوصده بالمفتاح، ورجعت بسرعة البرق، وكأنني ريشة بالهواء وانزلقت تحت الغطاء، وأنا أرفع ناظري تجاه الباب لأرى هل

ما زالت تلك الخيالات والظلال موجودة أم أنها اختفت وغادرت المكان .

سمعت صوتا يأتي من بعيد وكأنه يأتي من عالم آخر ينادي باسمي (مريم)؛ فازداد الفزع بقلبي، من ذلك الذي ينادى اسمي؟

وكيف له أن يعرفه ؟

وضعت يدي على أذني وأنا تحت الغطاء إلى أن غلبني الخوف والنوم فنمت كأهل الكهف، لا يدركون الزمن ولا تساعدهم الحواس على التواصل مع العالم الخارجي.

جاءت أمي توقظني بالصباح ولكنها وجدتنى شاحبة الوجه، وضوء الطفولة وبراءتها بدأ يخفت رويدا رويدا. نظرت إليها وإلى أختي وعيني تملأها التساؤلات

لماذا ؟!

كانت أمي تدرك أن الأبواب المغلقة سوف تفتح على يدي، هذا ما قالته العرافة ذات يوم ، عندما كانت تتجول في أروقة البلدة فوجدت أمي وهي تحملني على ذراعيها وعمري لم يتجاوز السنتين .

فأشارت إليّ وقالت هذه سوف تفتح الأبواب المغلقة . فارتعدت أمي من كلامها ، وبدأ كلام العرافة يدوى كالطنين بأذن أمي، وهي لا تعلم ماهي الأبواب المغلقة تلك ؟!!

صوت يهمس لأمي أن مريم هي المنشودة، هي من جاء عليها الاختيار لاكتمال التمام والتحام العوالم، هي من تستطيع فتح الأبواب، وهي من تملك المفتاح.

احتضنتني أمي وهي لا تعلم ماذا تقول، وكيف تستطيع أن تجيب على كل هذه التساؤلات !!
ولكن هذه الأصوات وتلك الهمسات التي سيطرت على عقلي، وأصبحت أراهم واسمعهم بكل مكان.
صحبتني أمي ذات يوم إلى شيخ بالقرية وقصت عليه حكايتي وكيف أن الظلال والخيالات تحيط بى بكل مكان فلم يعد ضوء النهار يمنعها بل تزداد تلك الأصوات بأذنى. قصت عليه ما قالته العرافة عندما كنت طفلة لا تتعدى السنتين .
رفع الشيخ، بكر، رأسه وهو ينظر إلى أمي ولي وهو يهمهم بكلمات، ويقول لا تسمعي للعرافات؛ فهؤلاء لا يعلمون الغيب وما يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى، واستعينوا بالقرآن دائما هو القادر على أن تنجو ابنتك من هول قادم نحوها، لكنها ما زالت صغيرة حتى يحدث لها كل ذلك .
تعجبت أمي من حديث الشيخ كيف لا تثق بكلام العرافة وكيف يقول لها أن ابنتها صغيرة على ما سوف يحدث لها !!

ازدادت الحيرة بقلب أمي وسكنت بصدرها تلك الهواجس التي لا تفتأ تدمر قلب أي أم، وما هي تلك الأهوال التي تنتظر ابنتها؟؟
نظر الشيخ بكر لها وقال يا أختي بالله، إن الله قد اختار مريم واصطفاها من بين الخلق كله لردع ظلم، ولدخول عالم من العوالم حتى تمنع هول قادم للبشر.
هم يريدونها منهم، وهي تريد أن تكون منا، اتركي قلبها يقودها، فالمعركة لم تعد معركتك ولكنها معركتها هي بعالمها هي بروحها هي . كل ما تستطيعين أن تقدمي لمريم هو

القرآن؛ فذلك سلاح الصالحين عندما تفتح الأبواب المغلقة..علميها آيات الله قبل فوات الأوان ...حصنيها بسيف الحق ..وعندما يأتي الأوان اتركيها تخوض حربها التي اختارها الله لها.

كنت أحفظ منذ نعومة أظافري القرآن بكتاب القرية وكنت سريعة الحفظ والبديهة فأكملت كتاب الله بسن السادسة . ولكنني كنت كثيرة التساؤلات وكثيرة التفكير، أنظر إلى النجوم، وكأنني نجمة أتشاكس معهم بل وأتحدث معهم، وكأنهم أصدقائي الذين ألعب معهم وأحاورهم . أنظر إليهم بعيني اللامعتين وبريق الطفولة يضوي بهما.

وأرسل إلى الشمس ضحكاتي، وكأنني ضوء شارد من أمه. أحاور الظل والشجر، وأتكلم إلى الطيور حتى إن الكل يتعجبون كيف أفهم بهذا السن كلام الطير والحيوان.

لم أدرك معنى التمام بعد، عادة ما أسأل أمي، ليلى، عن الله و من هو الله وهل هو موجود؟

ولماذا لا نراه ؟؟!

سؤال كل طفل يبحث عن ذاته، عن النور بداخله، عن مكنون حياته وهو يراها كل يوم بصلاة أمه وأبيه والكل يردد الله موجود ..الله أكبر...تتكرر كلمة الله على الألسنة كثيرا، تركع الوجوه بخضوع تام، والكل يقول نسجد لله، وأنا أتعجب لماذا لم نرى الله ؟ وأين هو ؟

سألت أمي عن الله ؟

فقالت إن الله هو الوجود كله، وهو الخالق لا المخلوق، هو النور لكل ضوء موجود ، هو روح سكنت ذلك الجسد الفاني، هو أنا وأنت و كل الوجود. نحمل أرواحنا وهي جزء من روحه .
تعجبت من حديث أمي وقتها وكيف أن أكون جزء من روح الله وهل يسجد الجزء للكل ؟
نعم بنيتي يسجد الجزء للكل بل يبحث عنه؛ ليلتحم ويكون تمام الروح. نسجد لأنه خلقنا، ونفرح عندما تخضع الجباه له محبة، وإكراما، بل وتذللا وخشوعا، يغفر و يعفو عن كل ذلة لنا لأنه يحبنا.
كانت تلك الكلمات عن الله تثير ألف سؤال وسؤال بداخلي.

بينما كنت ألعب مع بنات الجيران بنفس عمري بدمية قديمة لهم نشب خلاف بين الأختين ووقفت بعيدا عنهم أصرخ وأقول كفي شجارا!!
كلا الأختين يريد الدمية لنفسه، ويجذبها ناحيته حتى تمزقت الدمية بين أيديهم وتطايرت ورقة مطوية بداخلها لتقع بين يدي .
فسكن صراخهم بعدما فقدوا الدمية ومزقوها وذهبت الأختان يبكيان أمهم، وكل منهما يلقي اللوم على الآخر. ولكني أخذت تلك الورقة وأنا أنظر إليها بتمعن غريب وأقلبها بين كفي الصغيرتين.
كانت تفوح منها رائحة السحر الذي استحوذ على عقلي، يريد الاطلاع عليها وماذا بداخلها.
تسللت بها إلى غرفتي وفتحت تلك الورقة المطوية عدة طيات فإذا بها رسوم غريبة وكلمات مكتوبة بطريقة غريبة ومائلة .

كانت هناك أشكال هندسية وأشكال الحيوانات منها الفئران، والقطط، والنمور، والأسود. تفحصت الورقة بتلك العينين الصغيرتين، فإذا بكتابة على ظهرها تقول لقد حان الميعاد لمن بيده مفتاح الباب.

دخلت أمي فجأة؛ فارتجفت من الخوف وأخفيت تلك الورقة تحت وسادتي وأنا أرتجف .

ما بك مريم ؟!

هل أنت بخير بنيتى؟!

نعم أنا بخير ولكني متعبة من اللعب اليوم مع بنات الجيران ودائما ما يصاحبني ذلك الشعور أني لست طفلة مثلهم .أراهم يدمرون الأشياء ثم يبكون ويتذمرون.

نعم بنيتي ..كل البشر كذلك ..

لماذا أمي ؟

لأن الله خلق بداخلنا النفس ..

وما هي النفس، أمي؟!

هي الحصان الجامح الطامع الغيور بداخل كل منا،

هي التي تشتهي كل الأشياء، هي النار التي تلتهم كل مشاعر الحب والحنان، هي الداء بأصل الإنسان، فإن انتصرنا عليها فزنا بكل الخيرات وملكناها قبل أن تملكنا، وتهوي بنا بنار السعير.

النفس، بنيتي هي الامتحان الأبدي للبشر .

هي الأداة التي بها ندخل الجنة أو النار.

إنها مثل امتحانك كل عام؛ إن اجتهدت قهرتي رغبتك بالكسل، وفزتِ بالنتيجة، وإن استسلمتي للكسل ضعتى ورسبت بالامتحان .

هكذا النفس، بنيتى، هي الامتحان لكل منا.

فهمت يا أمي!

فكل منهم لم يستطيع أن يتحكم بنفسه، ويريد أن يستأثر لنفسه بالدمية؛ فتمزقت بينهم ونشب الشجار والكراهية بينهم.

نعم ! إنه كذلك .

حفظك الله يا مريم دائما من كل مكروه.

هل مازلت ترين تلك الظلال ؟

لا أمي ولكنى لا أريد أن أكذب عليك أو أخفي عليكِ أمرا..لقد وجدت تلك الورقة اليوم داخل الدمية عندما تمزقت.

أي ورقة ؟!

أخرجت الورقة وأعطيتها لأمها ...فدهشت ليلى وصرخت صرخة مدوية وهي تقول كيف ذلك ؟

لقد كنا تخلصنا منها للأبد.

كيف تصل إليك أنت بالذات؟

يا للمرار و ياللهول إنه العهد ، إنه العهد؟!

أى عهد ، أمي ؟!!

لماذا تصرخين هكذا ؟!!

ولماذا تبكين ؟!

رفعت ليلى رأسها ودموعها تتساقط الواحدة تلو الأخرى تسارعها بالسقوط وهي تمسك ذراعي وتقول:

ستدفعين ثمن أفعال أجدادك.

الآن عرفت لماذا أنت مفتاح الأبواب المغلقة!
ماذا تقصدين ، أمي ؟؟
لا شيء ..مازلت صغيرة على كل ذلك .
هرعت أمي إلى الشيخ بكر تقص عليه ما رأت وسمعت ونسيت تلك الورقة معى ..
عندما وصلت لبيته؛ طرقت الباب طرقات سريعة عنيفة متتالية كالذي يطلب العون والنجدة ويستغيث .
فتح الشيخ بكر الباب وهو يقول ما بك! ماذا حدث؟!
مريم يا شيخ بكر بخطر . أدركت ماذا تعني العرافة بحديثها، أدركت الحقيقة والمعنى، أدركت ما وراء الحجب من مغزى.
ماذا تقصدين ؟
سأقص عليك القصص لعلي أجد حلا لديك.
جدي، والد أمي، كان شيخا كبيرا له صيت كبير، يسمع له أهل القرية ولعلك تسمع عنه إنه الشيخ محمود.
نعم لقد سمعت عنه مرارا وتكرارا والكل يشهد له بالصلاح .
هذا ما الناس يعتقدونه، لكن الحقيقة هو من استعان بغير الله، وقضى ليلة يعقد العهود، ويستدعي من العالم الآخر شياطين وجان من كل الألوان والأجناس .
فقد كان يملك كتاب به من الطلاسم وكلام الجن، يستخدمه بأعمال سفلية، بل ويتنقل بين الناس وهم نيام يستمع لحديث هذا ويؤذي كل من يؤذيه، بل كان سببا بموت الكثير من الناس .
إلى أن جاء اليوم وطلب الشيطان لقاءه؛ فبعث له نفر من الجن وكان يدعى ميمون؛ دعى الشيخ محمود إلى رؤية إبليس

واستجاب جدي لنداء الشيطان؛ ففتح باب من الحجب، وذهب إلى مملكة إبليس، وكانت على نهر من الدماء .

يعلو بالسحاب قصر زمردى متوهج من نار، وعندما دخل الشيخ إلى القصر استقبله إبليس العظيم، برداء متوهج وعينين واسعتين يجري بهما نهر من سجيل بوجه مائل إلى لون الدماء بدون أنف ووجه طويل، وكأنها قطعة اجتزت من قاع الجحيم، استقبالا حارا وعقد معه العهد وأبرم الاتفاق بورقة وقع عليها الشيخ محمود وإبليس بدمائهم؛ فأصبح جدي واحد منهم .

كان جدي أداة للشيطان بالأرض، يحقق له الأماني ويجلب له كل ما يريد، يمنيه و يحقق ما تتوق له نفسه حتى أن الملوك كانت تهاب جدي، دون أن يلاحظ أحد من أهل القرية ذلك . ولكن حدث ما لم يخطر ببال لجدي يوم أن جاءت إليه امرأة يفوق جمالها البشر، وقعت عيني جدي على الجمال الذي يطل من عينيها وعلى تلك البراءة بنبرات صوتها؛ فهام قلبه به، ووافق بالحال على طلبها، أن يعلم ابنها القرآن .

وافق على الفور بالرغم من العهد بينه وبين الشيطان . وبدأ يعلم الولد القرآن حتى يتقرب من أمه. مع كل حرف ينطق به يزداد الشيطان غيظا وألما فقرر الشيطان الانتقام؛ فسلط النار على والدة الطفل فأكلت وجهها. عندما علم جدي، محمود، ذلك قرر هو أيضا الانتقام لأن سهم الحب الحقيقي أصاب قلبه وكلمات الله كانت سيفا على رقبته . فقرر أن يفتح ذلك الباب مرة أخرى ويدخل إلى ذلك الدهليز متخفيا ومعه سلاح قوي.

هذا السلاح مصنوع من مادة نادرة يخاف منها الجن ومرصع بخاتم سليمان فقد أهداه إليه ساحر كبير، الذي علمه السحر ، هذا الخاتم .

فتح الباب وكانت تلك الليلة الغبراء، شديدة الرياح، والكلاب تعوى كالذئاب، والمنزل يرتج ويهتز.

أحاطتنا الظلال من كل صوب. تمتد أذرعها تطوق المكان، كل ما يتلو تعويذة من كتاب السحر. رسم رسمة سداسية الشكل بأرضية الغرفة و جلس بجوارها يتلو الترانيم والتعاويذ و يصيح بنبرات عالية.

كان كمن يجلب القوي الخفية من عالم خفي، كمن يجمع جيوش من المردة ويسخرهم رغم أنف الشيطان وحكمه، كان كمن يسلب الشيطان تاجه. كنا نسمع صراخ بكل مكان، وكأنها أرواح تتعذب، حتى ظهرت فتحة دائرية في السماء سوداء قاتمة، ظهر منها ذلك الثعبان الضخم برأسه يلتف حول المنزل، ونحن نجلس بزاوية من زوايا الغرفة خائفين، نرتجف من الحرب التي تدور بين جدي وبين الشيطان، و لكننا كنا نحتمي أنا وجدتي بكتاب الله نضمه إلى صدورنا؛ فلم يستطع الشيطان الاقتراب منا بل كنا نراقب المشهد ونحن نذرف دموع الهول والهلع والخوف.

حتى انفتحت تلك الفجوة بالهواء وابتلعت جدي، واختفي كل شيء ماعدا ورقة العهد التي كتبت بدماء جدي والشيطان . أخذتها جدتي ووضعتها داخل دمية قديمة وخاطتها بمخيط متين وأخذتها، وألقت بها بعيدا بالترعة الشرقية من البلدة، ولا

أعرف كيف تمكن جاري من إحضارها إلى بيته إلى أن وقعت بيدي مريم بهذا اليوم .

فماذا أفعل يا شيخ بكر؟!

لقد ظننت أن الأمر إنتهي ولكنه بدأ من جديد.
إنها ديون لابد من سدادها، فجدك، محمود، قد انتهك قانون الله وتجاوز حد الكفر، و تخطى الحجب، وأزاح الستار عن عوالم خفية والله بحكمته أخفاها عنا وإلا لكانت ظاهرة لنا، فمن كل قلبي أشفق على مريم من تلك النيران التي سوف تحترق بها، وبالحرب التي ستدور بينهما، ولعل الحرب بعالم خفي شيء بشع؛ فعدوي يراني وأنا لا أراه، ولكنها حكمة الله أن نرى بقلوبنا، ولعل هذا الباب يفتح؛ ليغلق إلى الأبد وتنقذ جدها القابع هناك ولا يعلم مصيره إلا الله.

***

الهواجس

كم من الهواجس تجتاح عالمنا الصغير وتضج مضاجعنا. تأتي لنا بجنح الليل؛ تغزو أوصال بالقلب، لتستيقظ كل ذكرى، كل خوف، كل شك، كل ماهو حزين. نخاف من الغد، نخاف من المرض، نخاف على أبنائنا عندما ينطلقون خارج سياج أسوارنا، نخاف من الحنين، حتى الحب نخاف منه أن يتملك القلب؛ ونخاف على الحب حتى لا يتلوث بأيدى الخائنين، نخاف من أن تخذلنا صحتنا يوما ما، نخاف من الموت والمجهول، نخاف من كل شيء، ولم نخف يوما أن ينتزع الشيطان أبنائنا من أحضاننا. نعلمهم فن الحياة ونسينا أن نعلمهم حياة القلوب، حياة الصالحين، حياة لا نسمع عنها إلا بقصص التراث والتاريخ. حياة الكرامة بين سطور كتاب نسيناه وتركناه على الرفوف؛ فتراكمت عليه طبقات الغبار فتراكم غبار الدنيا على نفوسنا وأصبحنا نلهث وراء الدنيا وضاعت القيم؛ وهاجمتنا الهواجس بالليل والنهار تلتهم أرواحنا كوقود للنار التي تشتعل بصدر كل منا.

هكذا أنا عندما تمعنت بالعهد ونظرت الى تلك الأشكال الهندسية، وتمعنت النظر بظلال الكلمات. شعرت وكأن الكلمات تتحرك وتتشكل بدائرة تتسع بعيني، وتزداد شيئا فشيئا حتى سمعت صوتا يهمس برفق لي بأني بانتظارك مريم، بانتظار اللقاء.

كنت كمن فتح باب ودخل إليه، وكأن حياة أخرى وراء تلك العبارات والأشكال، فاستحوذت الأشكال على عقلي الصغير، وبت لا أرى إلا فك شفراتها. انتابتني تلك الموجة الباردة وكأنها أنفاس تأتي من قلب الجليد تجمد روحي، وتتحسس يدي الناعمتين برفق، وتتسلل بخفة؛ لتلمس ذلك الوجه وتلك العينين، وكأنها ترسم خريطة على جسدي الطفولي الصغير.

حتى أيقظني صراخ أمي، تنادي، مريم، مريم!

فتهاوت ورقة العهد من يدي عندما فتحت أمي الغرفة فجأة، ووقع صوتها الخائف يحكى هاجس مرعب ينتاب روحها الهلعة.

أين العهد؟!

أين العهد؟!

نظرت إليها نظرات التائه الخائف المترقب. كان هناك شعورا يجتاحها بأن هناك من يراقبها دائما يترصد خطاها وأنفاسها.

قلت لأمي إنها هناك، هناك على الأرض!!

هرولت ليلى لالتقاط العهد وعند اقترابها رأت حفرة سحيقة بها نار شاسعة تكاد تنزلق بها؛ تراجعت على الفور، تقول أعوذ بالله من شر الشيطان، فجذبت أمي وكأن بي قوة خارقة، ودفعتها بعيدا عن العهد، وأنا أقول تراجعي أمي فإنه لي، إنه قدري، الذي بليت به، وارتفع العهد بالهواء وطار ليقع بيدي وتأملته وعيناي تتغير ويزداد بريقها واتساعها، متجاهلة أمي وصراخها.

تقول لا تنظري! لا تنظري!

بدأت أهمس بكلمات وكأن هناك من يلقنني ويعلمني. أنظر إلى الأشكال وترتفع نبرات صوتي حتى ارتفعت الكتب من مكانها واصطفت بالهواء، وكأنها سلم متدرج أصعده وأعلو فوق

صفحاته. تتسارع دوامة من الهواء ترفع كل الأشياء، وتدور بدائرة كهالة تحجبني عن أمي.
إلى أن ظهر ذلك الطائر بالهواء والتقطني بمخالبه واختفي من الغرفة.
أخذني بغتة إلى عالم خفي لا أعلم عنه شيء، عالم من سبع عوالم لهم سبعة أبواب مختلفة.
انتابت ليلى حالة من الفزع والذهول وكاد عقلها يطير و هي ترى ابنتها كساحرة تطير بالهواء،
تختفي كما الجنيات بالأساطير. تمد يدها إلى الفراغ، إلى الهواء، ولكنها تبخرت كالماء، وذابت بدوامة العوالم تتقاذفها أمواج الشر...
فهل هناك أمواج للخير هناك؟!!
كان بركان الغضب والحزن بقلب أمي وهي عاجزة عن إنقاذي من براثن حرب العوالم السبعة.
فهل أعود مرة أخرى إلى دنيا البشر وهل سأجتاز الامتحان أم تبتلعني دماء الشر وأنياب الشياطين!!!

***

طائر الفينيق

اختطفني طائر الفينيق وأطبق علي بمخالبه وطار بي عبر بوابة النور حيث أسنة الشمس و غابات النور.
سعت ملكة مملكة النور إلى جلبي على الفور قبل أن يصل إلي إبليس.
حلق طائر الفينيق بجناحيه فوق سماء المملكة، وهو يراقب بعينيه ذلك الجدار الخفي الذي يحمي المملكة من الظهور للأعداء، وإذا بسهم غاشم يصيب جناحه من عدو الظلام؛ فيهوي بجوار الجدار قبل أن يتحول إلى كائن خفي يتوارى بالنور، فوقع جريحا ممسكا إياي بين مخالبه، يتهاوى ويصطدم بالصخور الضخمة؛ فأصيب جناحه الأيمن و قدمه اليسرى، وانزلق بجسده من أعلى تلة بجوار غابة الظلام، وعيون الليل، ومردة الجان وأنا فاقدة للوعي.
فقد طائر الفينيق قدرته على الطيران، واستلقى على ظهره جريحا يحتضن مريم بين جناحيه المكسورة. تحت ظلال شجرة الزيزفون بالقرب من النهر، خيم الليل وألقى الستار عليهم.
تحول الطائر إلى هلام غير مرئي بالظلام، ومرت الساعات وهم فاقدين الوعي، وما إن لاح النور الخفي، حتى فتحت عيناي الصغيرتين أنظر حولي لأجد أنني بين براثن طائر عملاق ينزف دماء بيضاء. ارتعدت وأنا أرى نفسى بمكان أقرب إلى الجحيم منه للجنة؛ أشجار رؤوسها كرؤوس الشياطين، وروائح نتنة تفوح بكل مكان وأصوات أرواح تتعذب. اقتربت من الطائر وأنا خائفة

منه، و لمست ريشة منه، واقتربت من جناحه المكسور؛ أمسح بيدي الصغيرة مكان الجرح.
تفحصت جسد الطائر وإذا بي أجد أن قدمه اليسرى قد أصابها جرح بالغ؛ فأشفقت عليه وشققت جزء من ملابسي، أضمد جراحه.
شعرت بحركة الفينيق فابتعدت عنه خلف صخرة، وأنا أراقبه، ففتح عينيه، وعلم بخوفي واستشعر وجودي وتحدث إليّ وقال:
لا تخافي مريم، فأنا مبعوث ورسول من ملكة النور لحمايتك، وكل ما أريده هو أن تقتربي مني، وتأخذي بعض من قطرات دموعي وتضعيها على تلك الجروح بقدمى وجناحى المكسور حتى تلتئم بسرعة قبل أن ينتبه لنا أعداء النور.
فنحن بأرض الظلام وبجوار غابة الأشجان والأحزان، وسرعان ما يكتشفون وجودنا فرائحة أجسادنا العطرة غريبة عليهم.
أسرعت بكفي الصغير ألتقط دموعه وأضعها على تلك الجروح والكسور؛ لترى عجائب ذلك الدواء من تلك العيون.
هب الفينيق من مكانه على حذر ينظر بعينيه حوله؛ يتفقد المكان فإذا به يرى مارد من مردة الجن من بعيد بجوار أشجار الزيزفون يلتقط ثمارها؛ فتوارى الفينيق برداء خفي وأخفي مريم عن نظر المردة، حتى أنه سار بجوارهم ينظر إليهم يرونه وهو لا يراهم ولكن المارد يشعر بوجود شيء غريب بالمكان.
سار المارد وتجاهل ذلك الشعور حتى ابتعد عن عيني الفينيق؛ فنفرد جناحيه وتلحف بنور الشمس حاملا إياي على ظهره، أتعلق بريشة منه والرياح تداعبني وتداعب شعري المنسدل على كتفي الصغير، أنظر لأسفل لأرى أنهار لونها أسود ، وأنهار تمتزج

بالدماء، وأنهار تغلي كالجمر ورؤوس ملقاة هنا وهناك، وظلال كالتي كانت تتمايل بنافذة الغرفة.

حلق الفينيق بجناحيه يجوب سماء ليست كسماء الدنيا، سماء وكأنها نهر من فضة تعكس بهاء الضوء الصادر من وجوه بيضاء كاللبن المصفي، وجوه كلها تعكس براءة النفوس.

لا أدري لماذا استجابت نفسي وارتاحت لتلك الوجوه؛ لابد أن هناك ما يميزها. هبط الفينيق بساحة واسعة وكأنها لؤلؤة من الجنة، يتوسطها نهر يحسبه الرائي أنه يجري بالهواء.

كان بانتظارنا ثلاث أميرات كل واحدة منهن يعلو وجهها وقارا وحكمة ونورا غريبا، وكأنه السحر الذي يأثر القلوب. يرتدين تيجانا ليست بتيجان الملوك ولكنها تيجان من النور الأبدي الطاهر، تيجان يجري خلالها إكسير الحياة. دققت النظر بهم فإذا هي عوالم أخرى أستطيع أن أشعر بهم، إنهم عالم النور والحب، إنهم حقيقة!!

كنت أراهم يداعبون أحلامي، نغني سويا، ويهمسون لي بكلمات الوحي؛ فأسرع لتدوينها بدفتري الصغير.

إنهم هم، إنهم حوريات النور، إنهم جنيات إلهام المحبين والشعراء.

جاءت الملكة برداء بلوري وكأنها الشمس بمطلعها، وجهها يرسل ومضات من أشعة الحب التي تتخلل النفس بخلسة، يعلو رأسها تاج لم أرى مثله ولن أرى مثله..مدت يدها لتصافحني وتقول: مرحبا ملكة القلوب، ملكة العوالم السبعة.

تقدمت باتجاه الملكة وصافحتها وإذا بهالة من النور والضياء تحيط بي، وترتفع بي بالهواء، وكأنني على بساط سحري،

ونظرت إلى نفسي لأجدني بملابس فضية لامعة وكأني عروس ليلة زفافها.

أشارت الملكة، نور، إلي بيدها فهبطت بجوارها، انحنت بقامتها وقبلت جبهتي بحنان لم أعهده من قبل وتشابكت أيدينا وسرنا ناحية باب عالي، فتح من نفسه عندما اقتربنا. كنت أشاهد الفراشات الملونة وهي تهمس لبعضها، وأرى البهجة على وجوه الجنيات، وهم يرفرفون بأجنحتهم، إنه الحب من يضفي على الوجوه تلك النضرة، إنه الخيال حيث العالم الذي تستطيع أن يكون لك فيه أجنحة تحلق بها بكل مكان، إنه انعكاس حقيقة نفسك على مرآة وجهك.

إن الحب هو ما يجعلك تشعر بأنك ريشة بالهواء خفيفة تداعبها النسمات ويداعبها الأمل حيث لا مكان للوهم.

كنت بحالة من الانشراح والبهجة، وكل ما كنت أحلم به كطفلة أراه أمامي يتحقق، أتحرك بخفة ورشاقة ولا يصيبني الملل. جلست الملكة نور على عرشها الشفاف الزجاجي المرصع بكرات الثلج والفضة حيث يلتقي وراء ظهرها نهرين يمتزجان بألوان الربيع. أجلستني بجوارها وكان الحرس يقفون بكل مكان بصالة شاسعة دائرية تدور ببطء.

***

النور

تناثرت أشعة الشمس وكأنها دنانير ذهبية تعكس ضياء الحب بين أهل المملكة. تعزف موسيقى الخلود والوئام بين قلوب المحبين. وكأن ذلك النور هو البيان والكلمات والحروف التي يسطرها الشعراء على أوتار القلب بسمفونية تتناغم ألحانها؛ فيرقص العالم طربا وتضم الروح حبيبها دون خوف.
كل منا يملك ذلك النور، نورا يغزو الأوصال عندما نقابل من يكشف الستار عن أجمل ما بداخلنا، عن الطفولة الضائعة بين الوهم والظلام، من يساعدنا ويمد لنا يد العون، الذي يحارب من أجل أجمل لحظات طاهرة تبقى إلى الأبد كذكرى تسكن الوجدان الذي يقودك إلى الله دون سواه عندما تشتد يد الشيطان و تتسلل إليك و تتغلغل داخل روحك؛ فيتشعب الظلام وتزداد الكراهية.
كلنا نحتاج ذلك الإنسان الذي ينقب عن أجمل ما فينا ويكون ذلك النور الذي يسري بأوصالنا، وتورق أوراق القلب بقربه ويروي بحنانه جفاف نفوسنا...

طرقت الجنيات الصغيرات زجاج الشرفة يغنين غناء الصباح وهن يتأملونني، وأنا نائمة، وكأنني أسبح ببحر من الأحلام، ودموعي تنساب على وجنتي، تبلل وسادتي حتى جاءت الأميرة، ريم، تمشي وكأنها النسيم تهمس لي بأذني حتى أستيقظ.

استيقظت وأنا أبتسم ابتسامة حزينة وأقول هل أقبل نور الفجر.

نعم أقبل وأرى المحاربة الصغيرة حزينة، كئيبة.
وكيف لا أحزن وأنا البعيدة عن عالمى وعن أمي!!
هل تعلمين أني أشعر بأمي تبكي كل ليلة، تنظر إلي السماء تنتظرنى، أري نظراتها؛ تغتالني كل ليلة وقلبي موصول بقلبها، وروحي تسري بروحها، ونبضي يسمع نبضها.
نعم أعلم ولكنه قدرك يا مريم!

وأي قدر هذا الذي لا أعلمه؛ لا أعلم غير أني طفلة ذات ست سنوات وبضعة أشهر، كنت أرى الحياة بعين أمي
كنت أنا ظلها وهي شمسي، كنت أنا همسها وهي أحرفي.
ثم قالوا هذا قدرك أن تواجهي الظلام وتدفعي ثمن أخطاء الأجداد. هكذا قال الشيخ، بكر لأمي.
كل شخص له قدر بالحياة، خلقنا لنقوم بالمهمة التي خلقنا الله لها. وأنت خلقت لكي تكوني محاربة؛ توحدي العوالم التي اغتالها الشيطان وأعوانه.
وكيف لطفلة مثلي وحدها أن تفعل ذلك؟!!
بالحب والنور والجمال؛ فالحب وحده قادر على هزم ملايين الأشرار، الحب وحده هو سلاحك الوحيد بالمعركة.
سأذكرك بأم النبي موسى.
كان طفلا رضيعا ولكن كان قدره أن يُلقى بالنهر بأيدي أمه.
هل هناك عذاب أكثر من هذا يا مريم؟!
أم تلقي ابنها بالنهر بأمر من ربها. ولكنه القدر الذي يقودنا إلى القوة، إلى حيث الأصفياء الأنقياء. فلولا حب امرأة فرعون لموسى الرضيع لمات كما مات غيره من الأطفال ولكنه الحب هو من أنقذه.

هل سينقذني الحب كما تقولين؟
نعم، فأنت تملكين أغلى جوهرة قد يمتلكها إنسان؟
وأين تلك الجوهرة فإني لا أراها؟!
هي بداخلك..هي قلبك عزيزتي، عندما يكون القلب نقي لم تمتد أي يد لتلوثه حينها ستملكين أعظم سلاح قد يمتلكه مخلوق.
هلا صاحبتني لتناول الفطور مع الملكة نور!
اصطحبتني الأميرة ريم إلى قاعة كبيرة يتوسطها مائدة ضخمة بها كل ما لذ وطاب...استقبلتني الملكة بقبلة رقيقة على وجنتي الصغيرة وأجلستني بجوارها تطعمني بيدها، حتى جاء ملك من الجان يملك صولجان كبير، وطلب الحديث إلى الملكة.
نظرت إلى الملكة وعلى ثغرها ابتسامة الملوك وانحنت بقامتها تستأذن بالانصراف.
حتى جاء الفينيق يغرد بصوته الشجي يناديني من ساحة القصر، هرولت إليه مسرعة حتى نسيت الطعام واحتضنت رقبته الكبيرة وهو ينحني لكي أعلو ظهره؛ لنطير ونجوب المملكة كلها، تعلقت بريشة من جناحه فرفعني بفمه حتى صعدت إلى ظهره، وأطلق جناحيه يشقان رياح العليل، وأنا أصرخ وأضحك بنفس الوقت.
كانت الفراشات تطير حولنا كل في سربه، وتنظر إلى وتغنى وتلقى التحية، وأنا أنظر إلى غابات النور، وتلك الأنهار التي يضوي منها شعاع الأمل، وتلك الجبال العالية التي يكسوها الثلج الأبيض.

طار بي حتى لمست السحاب بيدي، حتى وصلنا إلى مكان عالي على سفح جبل وبه كهف لؤلؤي يضيء من الداخل بتلك الماسات والكائنات المضيئة.
هبطت من على ظهر الفينيق وأنا أقول له أين نحن؟
قال نحن هنا حيث يجتمع الظل مع النور، حيث ستتلقي أول دروس الحرب، حيث لا يوجد مكان للتردد.

تقدم أمامي ودخلنا الكهف الماسي وأنا أرتجف من الخوف، ولكن الفينيق وقف فجأة عندما استشعر الخوف بداخلى ونظر بعينيه،
وقال: هنا لا مكان للخوف...
هنا لا مجال للحزن...
هنا اللحظة بحياة إنسان..
والوقت سيف على رقبة صاحبه.
قلت له سوف أكوي نيران الخوف بالثقة، وسوف أستخدم أحرف القرآن المحفورة بقلبي كدواء لذلك الداء والخوف الذي يسري بنبض حياتى، وبدأت أتمتم بتلك الكلمات من القرآن حتى هدأت وخضع قلبي لإرادتي.
ونظرت إلى الفينيق فعلم أني مستعدة؛ لخوض تدريبات الحرب، وعندما خطونا خطوات قليلة بالكهف تبدلت ملابسي فجأة، كنت مثل المحاربات في الأساطير بزيهم ودروعهم. تقدمنا أكثر داخل الكهف وإذا بالفينيق يتحول إلى شاب وسيم، بهي الطلعة، توقفت والذهول قد امتلكني، فقال لي:
هنا لا مكان للفينيق هنا مكان الإنسان حيث الاختبار.

تقدمنا أكثر فإذا بقدمي تنزلق على منحدر يزداد انحدارا لأسفل حتى وقعت بغرفة مظلمة حيث لا يوجد أي ومضة نور؛ فصرخت أستنجد بالفينيق وأصرخ، وكلما زاد صراخي زادت العتمة حولي، وشعرت بيد تمتد نحوي تجذبني باتجاهها فشعرت بالفزع وبدأت أدور بجسدي وأتلفت يمينا ويسارا بحثا عن تلك الأيدى، فإذا هي تزداد، وأشعر بأيادي كثيرة حولي تتحسس جسدي وأنا أصرخ وأصرخ حتى تذكرت كلمات الفينيق وهو يقول هنا لا يوجد مكان للظلام.

كيف ذلك؟ و كل ما حولي ظلام؟!

فهدأت لبرهة و أغمضت عيني أستشعر النور بداخلي...حتى رأيت الفينيق يمد لي بضوء وشعلة. ففتحت عيني وأنا بداخلي ثقة بالنور، حتى رأيت المكان كله يضيء من داخلي..فهرولت أجري صوب مدخل صغير يقود إلى منحدر آخر..

وانزلقت داخل بركة من الماء بباطن الجبل، فنظرت حولي حتى رأيت شيئا يتجه نحوي، ويشق الماء فنظرت يمينا ويسارا، والفزع يكاد يقتلع قلبي من مكانه؛ فأسرعت أسبح وأدفع الماء بقوة بيدي نحو حافة البركة لعلني أنجو من الخطر القادم نحوى، وما إن اقتربت من حافة البركة حتي شعرت بشيء يلتف حول جسدي بالماء ويجذبني لأسفل، ولكن حاولت التخلص منه وجسدي يغوص أكثر وأكثر حتى أيقنت أني هالكة لا محالة...فبدأت أصرخ من الألم واتحسس زي المحاربات الذي أرتديه فوجدت ذلك الخنجر؛ فانتزعته من مكانه وقد سحبني ذلك الشيء أسفل الماء، فرأيت ثعبان ضخم أسود وقد التف حول قدمي بقوة وارتفع برأسه يفتح فمه؛ ليلتهمني وبسرعة

باغته بطعنات بمنتصف رأسه وكررت الطعنات، وأنا لا أعي كيف تغلبت على الخوف بداخلي، فمات وهوي جسده الضخم يرقد بقاع البركة؛ فأسرعت أسبح حتى وصلت لحافة البركة واستلقيت بجسدي على تلك الأرض الرطبة، ألتقط أنفاسي.
وصرخت بأعلى صوتي أنادي الفينيق، فلم أتلق إجابة؛ فتساقطت دموعي أتذكر أمي ولهفتها على، وأغمضت عيني فوجدت الفينيق أمامي بهيئته البشرية البهية وهو يقول: لولا دموع الحنين لكنت بقيت ببطن الجبل إلى يوم يبعثون. إن المحارب الحق هو الذي يمتلك قلب يحن إلى النبع الأصيل للحنان وهو الأم، هو من لا تتجمد الدمعة بعينيه؛ فتتولد القسوة ويقسو القلب ليتحجر ويصبح قطعة من الجحيم، فيسهل على الشيطان الاستيلاء عليه، ويصبح لعبة وأداة ليؤذي البشر...

نظرت إليه وقد غمر المكان بنور الحنان وجذب يدي بقوة؛ فانتفضت واقفة وأغمضت عيني، فإذا بي بمدخل الكهف وقد تحول الفينيق إلي هيئته واختفي زي المحاربات الذي كنت أرتديه فرجعت إلي هيئتي الأولى..
لماذا كل هذا لقد كدت أموت؟
لأن العدو دائما يلعب بأوتار الخوف!!
ويتغذى على الظلام الذي يسكن القلوب؛ فيتمكن من الفؤاد وينتزع الروح النقية ويقتلها ويسكن هو بدلا منها..
ولكني بشر أخاف؟!!
نعم! أنتم بشر يتملكهم الخوف أحيانا ولكن ما هو أنواع الخوف يا مريم؟
لا أعلم غير أني أخاف!

وهل هناك أنواع للخوف؟!

نعم، هناك.

هناك الخوف من الله، والخوف من الشيطان، والخوف من العدو، والخوف من الزمان، والخوف من النفس، والخوف من المجهول، والخوف عند الفزع.

هل يتساوى يا مريم من يخاف الله بمن يخاف الناس أو الشيطان؟!!

وهل يتساوى من يخاف الله بمن يخاف الفشل، أو الهزيمة من العدو؟!

سأقص عليك مريم حكاية بطل هزم عدوه بداخله ثم هزم عدوه بالمعركة..حكاية من سجل التاريخ البشري حيث الخوف المسيطر على أنفاس البشر، حيث الشر بكل مكان.

كان دين الله يعم جزءا من الأرض ولكن الشيطان تدخل وجعل الناس يتبركون بالقبور والأضرحة بل كانوا يدعون من دون الله حتى تغير حالهم إلي الوثنية وعبادة الأصنام، ويزنون ويفعلون المنكر من شرب الخمر حتى ظهر رجل منهم قرر قتل الخوف بداخله ويدعو الناس إلى التوحيد وإلي الله كان هذا الرجل يدعي الشيخ عبد الله بن ياسين، وقيل عنه أنه مؤسس جماعة المرابطين وكان من البربر وجاء مع الشيخ يحي بن إبراهيم الجدالي ليدعو الناس إلى الدين الصحيح وترك الدعاء عند القبور ولكن الناس رفضوا، وطلبوا منه تركهم لحالهم ولم يستجيبوا له فحرقوا بيته وطردوه خارج القبيلة، وهددوا الشيخ يحيى بن إبراهيم بنفس المصير إن هو ساعده. وأصبح الشيخ عبدالله بن ياسين طريدا في صحراء موريتانيا وأصبح بين

خيارين إما أن يرجع إلى بلده ويتنعم بالحدائق ويعيش عيش المترفين وإما أن يسلك طريق الأنبياء والصالحين، فاختار طريق الأنبياء بصعوبته وطرقه الوعرة واتجه جنوبا في أدغال إفريقيا ليعبر نهر السنغال وهناك في غابة من غاباتها أقام خيمة ورابط فيها، ثم بعث رسالة إلى أهل جدالة يخبرهم فيها أنه من أراد تعلم دين الله فليأته في رباطه في أرض السنغال..فجاء إليه نفر قليل وكانوا ستة، أقاموا معه وتعلموا دين الإسلام والتوحيد وأحبوه ودعوا أهلهم للتعلم فجاءوا جميعا وأقاموا بخيام وتعلموا الدين الصحيح كما تعلموا التربية الصحيحة من صيام وصلاة وحفظ القرآن، وصيد طعامهم من غابات السنغال، كما أنه يعلمهم فنون القتال أيضا، فزاع صيته، وتوسع المرابطين إلى أن وصل عددهم إلى ألف مرابط ووصل عددهم بعد ذلك إلى سبعة آلاف بفضل زعيم قبيلة «لنتونة»الشيخ يحيى بن عمر اللنتوني...وتوسعوا حتى نشروا الدين الصحيح ببلاد عدة...

أقص عليك تلك القصة من واقع حياتكم ومن تاريخكم البشري حتى تعلمي متى تهزمين الخوف من الفشل..فالشيخ عبد الله هذا لم يخف من التهديد والوعيد بل قوة إيمانه وعقيدته قادته إلى صفوة الخلق الذين اصطفاهم الله رغم وعورة الطريق وجفاف العيش...

فهمت الدرس يا فينيق..أنت تحثني على الصمود بوجه الفشل، تريد أن يكون لي قرار وعقيدة راسخة تكون لي أرض صلبة أقف عليها.

نعم يا ملكة العوالم السبعة، فهذا هو الهدف.

هيا لقد حان الوقت للرجوع إلى المملكة حيث النور يطغي على الوجوه والقلوب.

أحني الفينيق رقبته، وصعدت على ظهره وفرد جناحيه و أطلقهما يسابقان تلك النسمات الباردة، ينحني بجسمه تارة، وأنا أصيح من الخوف، وهو يضحك ويقول تعلمي أن لا تصيحي من الخوف بل صيحي صيحات الفرحة وخذي الخوف علي أنه لعبة لا بد أن تهزم.

وبدأ الفينيق يهبط بسرعة فائقة وأنا أتعلق بريشة منه وأنحني بجسدي مائلة حتى أتفادى سرعة الرياح، وجاب بها الفينيق بين الجبال والتلال وبين الأشجار والأغصان، حتى دخل إلى مملكة النور واخترق السياج الشفاف الذي يخفي المملكة من الأعداء.

وحط بي بساحة القصر، ودلفت من على ظهرة وودعته وهرولت داخل القصر؛ فاصطدمت بالملكة، ورفعت عيني أنظر إليها فتبسمت،

وقالت: هل استمتعت بالرحلة يا مريم؟

قلت لها بالطبع، ولكن الفينيق قد أخذني إلى كهف بجبل عال وخضت تجربة الخوف اليوم..

حقا!

نعم!

سعيدة بيك يا مريم. أنت تتعلمين بسرعة.

لماذا أتعلم كل هذا؟!

تعالي نجلس أولا يا مريم.

ذهبت ويدي بيدها الناعمة وجلست الملكة نور على عرشها وجلست بجوارها على كرسي صغير مرصع بجواهر تشع نورا بكل اتجاه. قالت لي هل تشعرين بالجوع، مريم؟

فأجبت على الفور نعم، فلم أذق الطعام منذ الصباح.

نظرت بعينيها إلى الخادم ففهم لغتها وعلى الفور كان الطعام الذي أفكر فيه أمامي، ولم أتمالك نفسي، فالتهمت الطعام دون شعور، والملكة نور تنظر إلى وهي تتعجب من طريقتي بتناول الطعام..

فرغت من الطعام وشعرت بالنعاس يتسلل إلي جفوني ولكني استأذنت على الفور من الملكة للذهاب إلى غرفتي للنوم، فإصطحبتنى إلي غرفتي واستلقيت بالفراش وألقت علي الغطاء وهي تغني بصوتها العذب الشجي وتهدهد الأشعار علي أوتار النغمات وأنا أغوص بالنوم وكأنى بأحضان أمي أشعر بدفء قلبها يحيط بي.

***

التحدي

نتحدى أنفسنا بكل الأوقات، نتحدي الضعف الكامن فينا، نتحدي قلوبنا التي كسرتها الحياة بقسوتها، نتحدي العتمة بداخلنا. نبحث عن مصدر للنور، نفتش بحقيبة الأيام لعلنا نجد إكسير الحياة الذي يروي نفوسنا بالقوة، ويقتل ضعفنا وجبننا بالحرب الأبدية بداخلنا...

مرت الأيام وأنا أتدرب على تحدي المجهول بداخلي أولا.
كل يوم أطير مع الفينيق إلى أعالي الجبال والتلال والسهول أخوض تدريبا جديدا، وذات يوم كان اختبار التخيل؛ فالعدو سلاحه الأكبر هو التخيل، هو محو البصيرة، وانعدام البصر؛ فيرى الإنسان ما حوله مثل ما يريد عدوه.
وقفت وأنا أقول للفينيق:
هل كل ما أراه بالعين صحيح؟
لا ليس كل ما تراه العين صحيح يا مريم، فأحيانا تخدعنا العين ونقع بمصيدة الشيطان.
وكثير منكم أنتم البشر تجيدون تزييف الوجوه و تتخلون عن شرف الأخلاق التي تنير الوجوه.
فهل أنت مستعدة لخوض ذلك الاختبار أن ترى بقلبك لا بعينيك يا مريم؟
نعم مستعدة فكل الاختبارات قد خلقت مني شخصا جديدا لم أكن أعرفه، شخصا كامن بداخلي، مسجون بين أقطاب الوهم؛

فتحرر من قيوده الملتهبة، وانطفأت نيران التهور، وظهر ذلك الحكيم بأفعاله.

هيا للاختبار يا مريم!

دفعنى الفينيق بجناحه الأيمن على حين غفلة مني، فوقعت على الأرض، وتدحرجت على ذلك السهل المكسو ببساط أخضر، واصطدمت بشجرة أوقفت تدحرجى، وغبت عن الوعي وبعد عدة لحظات فتحت عيني، فرأيت وكأنني بمكان يشبه الصحراء، تلفح وجهي حرارة الشمس الحارقة.

انتفضت واقفة أتلفت حولى وأنا مذهولة لا أصدق ما أراه.

نهضت واقفة وأنا لا أكاد أنظر أمامي من حرارة الشمس، تقدمت بضع خطوات، شعرت بزلزال يضرب الأرض؛ فتعلقت بشجرة جافة يابسة قد تخلت عن الحياة.

وفجأة ظهر من باطن الأرض عملاق يتدرع بلباس حديدي و بيده مطرقة لها رأس بها بروز مدببة ويتبعه ثعبان أسود ضخم يرفع رأسه ويدور بها يمينا ويسارا، حتى لمحني، استتر خلف جذع عاري من الأوراق. اتجه نحوي وتبعه العملاق بخطوات ترج الأرض رجا. انتابني الذهول وتسرب الخوف لقلبي وكادت أوصالي تتوقف وتشل حركتي، لكن عقلي بدأ بإصدار الأمر فورا؛ فأطلقت ساقي للعدو بعيدا وتناسيت حرارة الشمس المحرقة ورمال الصحراء الملتهبة. ولكن إلى أين المفر فكل ماحولي فراغ، زحف الثعبان نحوي، والعملاق يرفع مطرقته، وما إن اقتربوا منى وقعت على الرمال وزحفت أحاول الهرب؛ فتوقف الثعبان عن الزحف ورفع العملاق مطرقته ليهوي بها على رأسى، ولكننى أغمضت عيناي، واستسلمت للقدر، ولكنه اختبار للتخيل،

واستكان عقلي وساد هدوء نفسي، وغيرت تفكيري بمكان آخر، ففتحت عيناي فلم أجد العملاق وثعبانه بل وجدت نفسي بجوار نهر جاري؛ فانحنيت أنهل منه أرتوي، ولكني وجدت خلفي حصان أبيض مجنح يقترب مني ولا يهابني.

كان جماله يخطف القلوب قبل الأنظار، فاقتربت منه على حذر، لكنه باغتني وفرد جناحيه وصهل بصوتٍ عالي وكأنه ينادي أقرانه، وإذا بقطيع من الجياد البيضاء تأتي مقبلةً من بعيد على شاطئ النهر. تراجعت خطوات للوراء وكان الحصان المجنح يقترب أكثر فأكثر وعندما حاولت أن ألمس شعره الأبيض المنسدل على رقبته تحول إلى شيطان أسود بعينين تشتعل بهما نيران وينفث من فمه نار؛ فوضعت يدي على عيناي، وقرأت بصوتٍ عالي« إن كيد الشيطان كان ضعيفا»...فتلاشى الجميع وتناثرت أجسادهم بالهواء وكأنهم لاشيء...فنظرت إلى السماء وناديت الفينيق وأغمضت عيني لأجدني أمامه وهو يهز رأسه ويبتعد.

وأنا أصرخ وأقول له لماذا تبتعد وتتركني وحيدة؟!

ألست راض عني، صديقي!!

ظل صامتا مطأطئ الرأس، فوقفت أمامه وأنا أصيح بوجهه..هل فعلت شيء خطأ؟

لماذا أشعر وكأنني رسبت بالاختبار؟!

رفع الفينيق رأسه وهو يقول:

أكاد لا أصدق بم فكرت فيه يا مريم!

فبدلا من أن توجهي عقلك وتفكيرك باتجاه الإيجاب والسعادة وجهته تجاه صحراء قحط لا ظل فيها ولا ماء.

وبدلا أن تواجهي نفسك وأفكارك هربت وزحفت حتى كادت تبتلعك، فنحن نتاج تفكيرنا وأحلامنا، كل إنسان يواجه أسوأ ما يخاف بداخله، كل منا مرآة لنفسه.

الثعبان والعملاق هما الفزع بداخلك وعدم إحساسك بالأمان.

كنت أتمنى بدلا من الهرب أن تفكري بسلاح تستطيعين به محاربتهم وهزيمتهم.

ولكن يا صديقي كادت حرارة الشمس تلفح وجهي وسخونة الرمال تشوي قدمي، ولا أستطيع التنفس وشعوري بالعطش، فقد نفذت طاقتي!!

نفذت طاقتك لأنك بالبداية أهدرت طاقتك هباءا، عندما تتعلمين أن تتحكمي بعقلك وفكرك وقلبك لن يستطيع كائن ما كان أن يقترب منك بل إن النور والصفاء الداخلي هو سلاحك.

هل رسبت بالاختبار إذن؟

نعم!

وهل لي فرصة أخرى، وهل ضيعت ثقتك في؟

الثقة لابد أن تنبع من داخلك، لا تنتظري أن يثق بك الناس وأنت مهزوزة ضائعة بداخلك.

أشاح الفينيق ناظريه عنها، فبكيت وجثيت على الأرض بركبتي وأقول:

أنا لست أهلا لكل ذلك.

أنا طفلة صغيرة، نزعت من أحضان أمي عنوة...لأخوض حربا لا أعلم عنها شيئا.

هل هذا عدل؟

كفي عن البكاء يا مريم وكفي عن الشكوى؛ فكثير الشكوى لا يستحق الريادة، والعدل أن تواجهي خوفك بدلا من الهروب منه.

وهل مازال أمامي فرصة أخرى؟

نظر الفينيق لى وقال:

لك فرصة أخرى فقط غدا؛ فاحرصي على اغتنامها، وإلا واجهت عقوبة شديدة.

سوف أفعل يا صديقي!!

نظر الفينيق لي وهو مشفق علي من كل تلك المعاناة

فما أصعب الحرب مع النفس؟

فرد الفينيق جناحه لأصعد على ظهره ودموعي لا تنفك تغادر وجنتي، ونظراتي المكسورة تكاد تعتصر قلبي الصغير. ظل الفينيق صامتا يتألم لألمي و لدموعي الحارة، ولكن لابد من بعض القسوة حتى لا يهزمني العدو و أقع أسيرة الشيطان وأعوانه؛ فتهلك العوالم السبعة ويسقط التوازن بين الخير والشر، وبين النور والظلام.

هبط الفينيق بساحة القصر وانحنى حتى نزلت من على ظهره، وأنا أنظر إلى الأرض ولا أرفع رأسي، فرأتني الأميرة، ريم، وأنا أهرول باكية إلى حجرتي فتبعتني بسرعة حتى لحقت بي وقد ارتميت على الأريكة أبكى بشدة.

فقالت لي الأميرة ريم: ما الذي يبكيك يا مريم؟!

لم أستطع الرد بل رفعت رأسي ودموعي تسيل على وجنتي الرقيقتين كأنها أنهار، واحتضنتني الأميرة ريم ومسحت دموعي وهي تبتسم وتقول: اهدأي يا مريم؛ فدموعك غالية علينا فنحن

أهل النور نخاف الحزن الذي يأكل القلوب، بل إن الحزن باب من أبواب الشيطان فاهدأي وقصي علي ما يبكيك.

هدأت وقلت لقد رسبت باختبار اليوم!

ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجه الأميرة ريم وهي تقول:

هل هذا هو السبب؟!

نعم!

كلنا نحاول في هذه الحياة ونبذل أقصى جهدنا، نفشل مرة ولكن ننجح مرات؛ فالفشل والمثابرة والمداومة على المحاولة من علامات النجاح، وأنا واثقة بقلبك الجريء الذي بين ضلوعك أنك قادرة على فعل المستحيل. فكلنا نضع الأمل بين يديك يا مريم، فصناعة الأمل فن وحكمة. الأمل هو أن ترسم السعادة على وجوه الآخرين وأنت تبكين من داخلك، بل تحترقين كما الشمعة، حتى لا يسود الظلام وتنتشر ظلال اليأس بعالم الإنسان؛ فينطفئ الأمان ويعم الخراب ويموت الحب.

لابد لك أن تنظري إلى السماء وتكلمي الله فهو الموجود بكل مكان يسمع نبضك منذ الأزل، ويعلم أنك تستطيعين أن تحولي النار إلى جنة الخلد بالحب والتفكير الذي يقودك إلى القوة بالحق لا الضعف حيث الذل ومذلة الشيطان وأتباعه...

ولكن أين هو الحب الذي تتحدثين عنه؟

لا أرى غير أني بعالم ليس عالمي ودنيا ليست ملكي.

بل إني أشتاق إلي أمي، أريد رؤيتها حتى يطمئن قلبي عليها. أريد أن ألمس وجهها، أتحسس أنفاسها حتى أستمد نور الحب من قلبها.

سوف آخذك إلى الملكة نور في الصباح فهي التي تستطيع أن تجعلك تنظرين إلى أمك من حجرة المرآة.

حقا سأرى أمي!!

نعم!

ارتسمت ابتسامة أمل خافتة على ثغري، وكأن بريق الحياة دب بأوصالي، واحتضنت الأميرة ريم وقبلتها من وجنتيها الرقيقتين بفرحة وربتت على كتفي وهي تقول:

سوف ترى أمك بالصباح بإذن الله تعالى.

نمت قريرة العين وأنا أتمنى قدوم الصباح حتى أملأ ناظري بجمال أمي.

***

المرآة

ننظر بالمرآة لنرى قبح أفعالنا، أو نرى جمال نفوسنا. ننظر بها ونتأملها ونتحدث إليها، وكأنها شخص آخر بالجانب الآخر من الروح، تتحدث إليه، وكأنه صوت الضمير الذي إما أن يجلدك أو يزين لك جمال أفعالك، أو تنظر إليها وكأنك تشتاق إلى نفسك الضائعة لعلك تجدها داخل خبايا روحك السجينة خلف زجاج المرآة...

صاح نور الفجر وضياء الأمل وغردت الطيور وغنت الجنيات الصغيرة ورقص الشجر وهبت نسائم النهر العذب من الأفق البعيد تحمل ذكريات وعبير أم مريم لينبت الأمل من جديد.
استيقظت وأنا أحلم برؤية أمي، هرولت إلى حجرة العرش حيث الملكة نور و هي تعتلي عرشها النوراني، فألقيت عليها التحية، وانحنيت بقامتي لها محبة واحتراما.
فأشارت لي بالجلوس بجوارها؛ فذهبت على استحياء وجلست بجوارها وهي تنظر إلى تنتظرني أتحدث وكأنها تعلم ما يدور بخلدي الصغير.
وفجأة سألتني الملكة وقالت:
لقد سمعت أنك رسبت بالامتحان يا مريم. هل هذا صحيح؟
تلعثمت كلماتي التي كانت بطعم الفشل الذي به مرارة تملأ الفم وتشل اللسان، ولكنى بادرتها بالرد وأنا عيني تنظران بالأرض من فرط خجلي، وكيف لى أن أطلب رؤية أمي وأنا لم أنجح بالاختبار.

نعم يا أيتها الملكة، فقد رسبت بالاختبار.
هل أعطاك الفينيق فرصة ثانية لأداء الاختبار مرة أخرى؟
نعم مليكتي...
وهل مازال يؤرقك ذكرى أمك ليلى يا مريم؟
بالطبع إنها أمي.
هل تتوق نفسك لرؤيتها؟!
وهل رؤيتها يحفزك لاجتياز المهمة وإتمامها؟
نعم بكل تأكيد.
فهل هناك حياة بلا أمي وهل الدنيا كلها تساوى نظرة منها؟!
تعالى معى إلى حجرة المرآة لتنظري إلى أمك لكن لن تستطيعين التحدث إليها؟
قامت الملكة وارتفعت بالهواء وجذبتني بيدها وارتفعت معها واختفينا بغمضة عين..ووجدت نفسي بغرفة كلها مرايا، ويتوسطها مرآة ضخمة. وقفت الملكة وأشارت إلي بالسكون وبدأت ترفع يدها
وتقول: يارب المرايا، يا مالك الملكوت، يا كاشف الحجب، اكشف لنا عن ليلى بالمرآة.
نظرت إلى تلك المرآة الضخمة فإذا بأمي طريحة الفراش تنادي علي. وأختي بجوارها تبكي على أمي وعلى فقداني. تنادي تقول: أي بنيتي أين أنت؟
واحتار دمعي وازدادت شجوني فكيف لعقلي رؤية أمي طريحة أحزاني. حاولت أن أناديها وأن ألمس وجهها وأضع يدي على المرآة لعلها تشعر بوجودي...

ولكني لاحظت تلك الظلال السوداء وهي تقف بجوار أمي، وتحيطها بكل مكان، فازداد حزني وأنا أصرخ لتلك الظلال بالابتعاد عن أمي وأختي، وكأنهم رهائن لديهم.

فإذا بالملكة نور تلقي طرف ثوبها النوراني على وجهي واختفينا من حجرة المرآة إلى حجرتي بالقصر. وضعتني الملكة بفراشي وكنت قد غبت عن الوعي. ولما بدأت أنفاسي تهدأ، وأفاقت عينى من غفلتها ونظرت حولي لأجد الملكة تجلس بجواري وبيدها كأس من الشراب فأعطته لي وهي تقول اهدأي صغيرتي.

فهذا ما يريده الشيطان وأعوانه؛ أن يبث الحزن والفزع والقلق بقلبك وتصيبك هشاشة الصمود ويسقط حصن الدفاع لديك.

لكن أمي وأختى سجينتين لدى تلك الظلال، لا تستطيعون التنفس. لقد رأيت روحهما بين قطبان لا يستطيعون الإفلات منها. رأيتهما يعذبان لبعدي عنهما، وأرى سوط الحزن يجلدهم، أراهما ضعيفتين، و أمي طريحة فراش أحزاني وأحزانها.

أليس هذا سببا كافيا لاجتياز الاختبارات والاستعداد لهزيمة الشيطان. أليس هذا سببا كافيا لكي تكوني ملكة؛ لتجمعي عوالم الحب وترسمي البسمة على ثغر أمك مرة أخرى.

ولكني ضعيفة لا أستطيع.

لا لست ضعيفة، لابد أن تؤمني من داخلك أنك تستطيعين. فقوة الحق دائما تنبع من أعماق الروح.

وكيف للروح أن تكون قوية؟!

وكيف لنفسي أن تهنأ وهي سجينة دموع أمي!!

دموع أمك ليلى هي التي ستجعلك قوية، فدموع المحبوبين نار تكوي فؤاد المحبين وتكون لهم دافع للثأر ممن كانوا سببا

لأحزانهم.فهذا ما أريده منك أن تتذكري تلك الدموع الطاهرة لأمك وتكون دافعا للثأر من الشيطان و أعوانه.

أشعر وكأن روحي فارغة خاوية، وكأنني أقف على حافة عالية، ولا يفصل بيني وبين الانهيار والسقوط غير خطوة واحدة، وأن دموعي تجمدت من صقيع تلك المشاعر البالية.

يا مريم تعالي بين ذراعيّ وبأحضان أمك الثانية، فهرولت إليها أرتمى في أحضانها الدافئة، وشعرت بتلك الرعشة التي تسري بشريان قلبي؛ يزرع به دفأ أنفاس أمي الخالدة. ووضعت الملكة يدها على شعري المنسدل وهي تقول:

هلا تعطينى وعدا بأن تجتازي الاختبار، يا مريم؟!

هل ستدافعين لاسترداد النور والفرحة التي سلبت من أمك وأختك وحياتك؟!

نعم ملكة النور.. سوف أفعل..

أرسلت الملكة نور رسولا إلى الفينيق يناديه لأخذي إلى اختبار صوت إبليس .

غرد الفينيق وهو محلق بالقرب من شرفتي وقد بدا عليه علامات الفرحة. فانطلقت أهرول إليه حتى قفزت من على سور الشرفة أحتضن الهواء وأرفع رأسي لأعلى حتى لحقني الفينيق، وتلقاني على ظهره، وهو يفرد جناحيه ويرفرف بهما في الفضاء الفسيح.

***

صوت إبليس

لقد أقسم إبليس لرب العالمين أن يغوينا نحن بنو البشر بصوته وجنوده، حتى أنه يجري بدمائنا نحن البشر مجرى الدم بالعروق. أخذه الغرور وتملكه حتى طرد من ساحة الرحمن بعد ما رفض السجود لأبينا آدم عليه السلام وقال لرب العالمين:« أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» فما كان إلا أن انقلب الحب والدلال والقرب من الله إلى حقد وغل وكبر على مخلوق سجد له الملائكة طائعين. خلق الله الإنسان وأعطاه أكبر نعمة حتى الملائكة لا تمتلكها، ألا وهي نعمة التعلم والمعرفة ونعمة أخرى ألا وهي العقل حيث الاختيار. اختيار أي طريق تسلك، وعلم الله أنك بحرب مع إبليس الذي تحدى الله فيك وأقسم بعزته حتى تكون من الهالكين ودخلنا دائرة الحرب الأبدية حيث النفس البشرية التي إما أن تكون عونا لنا أو هلاكا لنا.

طرت مع الفينيق وأنا أفرد درع الشجاعة وأمتطي ظهر الجرأة والإقدام، مستعدة لمواجهة الحرب، بل وخوضها بكل ألاعيب إبليس وجنوده. فدموع أمي كانت كلهب يكوي جرحي الغائر الملتهب، فأصبحت آلامي لا شيء بجوار دمعها، وأصبحت كلى فداء لها. بت لا أرى نفسي وضعفي بل أري أمي وكأنها وطني. فلا فكر يشغل بالى ولا ضعف يسرى بجسدى بل قوة محارب رأى وطنه محاصر فحارب وفدى بنفسه لأجل وطنه.

حط بى الفينيق على سفح جبل عالي تغطيه الثلوج من كل صوب ويعكس نور الشمس بأشعة يتخللها ألوان الطيف السبعة حيث البهجة والطاقة والطبيعة الإلهية وكأنها شاهد على أن الله هو النور وباعث الجمال، ومالك الأمور والعوالم. حتى يتذكر اللبيب العاقل حجمه عندما يتأمل الكون الشاسع، ويرى أن حجمة لا يتعدى قيد أنملة، ولكنه يملك روحا من روح الخالق فكيف بالله يلوثها بجبروت الغافل. ويجعل الشيطان يفرح ويسعد أنه انتصر، ونفذ قسمه، ونجح بحربه الأبدية؛ أن يبيد البشرية بنار الحقد والكراهية.

كنت أنظر إلى الأفق البعيد ونفسي تتوق لرؤية النور الإلهي بداخلي، وكأننى أستمد قوتي من ذلك النور الذي سرى بأوصالى عند رؤية أمي.

نادانى الفينيق قائلا: هل أنت مستعدة للاختبار؟!

نعم مستعدة يا طائري ومعلمي.

قال: أغمضي عينيك و رددي ورائي تلك الكلمات، يا مالك البصيرة والبصر، لا تجعل للشيطان علينا سبيلا.

فرددت وراءه تلك الكلمات فإذا بي أجد نفسي بغابة مظلمة لا أكاد أرى كف يدي منها، فتحسست حولي وأنا أخطو بحرص، فأسمع حرشفات وريقات الأشجار الجافة

تتكسر ببطء؛ لتصدر ذلك الصوت وسط سكون الليل وظلامه.

فاستيقظ أتباع إبليس ليبحثوا عن ذلك الزائر بجنح الليل.

فوقفت مكاني لا أتحرك؛ لأسمع تلك الهمسات تجوب حولي، فأغمضت عيني، وبقيت ساكنة لا أتلفظ بلفظ أو أهمس بهمس أو أتنفس. فكنت أشعر بأرواح تهيم بكل مكان حتى بدأت

أفتح عيني، أراهم أمامي ينظروا إلى عيني، يحاولون السيطرة على عقلي وتتجسد روح منهم، تارة بشكل أختي؛ فأحن إليها حتى كدت أن أحتضنها؛ إلا أنني أدركت أنها لعبة التخيل التي يلعبها الشيطان ليوقع فريسته؛ وتراجعت على الفور. فهمز الشيطان و أتباعه بأصوات أمي وأختي حتى كاد عقلي أن يشت.

فهو يعلم نقطة ضعفي ويلعب على أوتار الحنين، فيهمز لي أن أمي وأختي هنا يبحثان عنى. ولكني قاومت شبح الحنين هذا ولجمت قلبي بإداركي للحقيقة. ونزعت ذلك الخوف الذي ملأ صدري ونظرت بعيون تلك الأرواح واستجمعت ذلك النور بداخلي ورددت تلك الألحان الربانية بصوت ملائكي حنون يملؤه الحب والأمل، فغنيت بأبيات الله ولله واستجمعت الثقة التي جعلت من الظلام بداخلي سوط من نور بين يدى أجلد به تلك الأرواح.

فكنت أرفع ذلك السوط عاليا، وأجلد تلك الأرواح السوداء، وتتعذب وتصرخ من الألم، وتهرب بكل مكان حتى ظهر ذلك الضوء من نجم بعيد، ولكنه يزداد اقترابا ويزداد توهجا؛ فسقط بتلك الغابة شيئا ضخما أصدر صوتا يشبة الانفجار مع وهج شديد. حاولت الاقتراب ولكن النار اشتعلت وزادت حرارة المكان. أسرعت بعيدا عن النيران ونسيت أمر الأرواح التي كانت تهاجمني. واستمرت النار لساعات طويلة وكلما ازدادت النار، زادت صرخات نساء تستنجد، وتطلب العون والنجاة. ولكنى لم أرى نساء ولكني أسمع صرخاتهم المدوية بكل مكان فقط، لم أسمع صرخات رجال ولا أطفال.

هل حقا كل من بذلك الشيء نساء فقط؟!!!

اقتربت من ذلك الشيء رويدا وكلما اقتربت كلما زادت ضربات قلبي وزادت حرارة جسدي، وكأن هناك قوى تجذبني بقوة وطاقة جسدي أضعف من تلك الطاقة التي تحيط بي. فتوقفت أستجمع أنفاسي المتلاحقة وقطرات العرق تتصبب من جبهتي بغزارة.

فاختلط الأمر علي وزادت الغشاوة على عيني وسقطت على الأرض مغشيا علي. لم أدرك الزمان ولا المكان.

أفقت وكل شيء خيالات أمامي وظلال تتحرك بكل مكان حولي وأصوات تدوي بأذناي وصراخ يعم المكان.

أفقت فوجدت نفسي معلقة أعلى شجرة بجذع عاري من الأوراق من يدى، فكنت كالفريسة التي بين أنياب المفترس. حاولت فك قيودي فكنت أتأرجح يمينا ويسارا.

أرفع قدمى اليمنى مرة حتى أصل إلى تلك القيود. أحاول أن أنزعها بأصابع قدمي، وفجأة سمعت صوت فحيح يملأ المكان؛ فنظرت حولى، ولعلني أجد مصدر ذلك الصوت، ولكن لا شيء على الإطلاق..

أصوات وأصوات تدوي بعقلي، لا تتوقف.

توقف كل شيء فجأة وكأنني بدائرة السكون، لا أصوات ولا همسات، سكون يعصف بالأمان كسكون ما قبل العاصفة التي تعصف بما حولها. أدرت ناظري صوب اليسار وسط لفيف الأشجار حتى وجدت رؤوس الأشجار ترتجف من الخوف، تهتز وتتمايل بكل اتجاه، وكأن هناك من يقتلع قلبها من صدرها فتتمايل من الألم وتئن كطفل باك يبحث عن روحه الضائعة بين أغصان الأشجار العارية.

تأملت فإذا بروح سوداء برداء أسود تشق الأفق وتهرول باتجاهي. علمت أنه رسول إبليس لتقصي خبر وجودي بمملكته وعلمت أني أصبحت أسيرة لدى إبليس.

وقفت الروح السوداء أمامي بالهواء وكأنها تتأمل تفاصيل وجهي الصغير. فصرخت بوجهها المظلم فتمزقت روحها إلى عدة أرواح تتناثر بكل اتجاه حتى هدأ صراخي وتجمعت تلك الأرواح بروح واحدة مرة أخرى تسألني من أنت؟؟

قلت ومن أنت حتى تسألني؟!

لا أرى سوى روح مثل دخان أسود.

هل أنت السيئة التي تبيد الحسنة، أم أنت خادم مملكة الظلم.

هل تجرؤين على الحديث بهذا النحو؟!

هل تعلمين من أنت؟

هل تعلمين أنك هنا لا شيء؟!

لكن أنت...أنت...أنت...لك رائحة الإنس.

فكيف يحدث هذا!!!

لقد مر وقت طويل منذ أن رأينا إنسان هنا. فمن تكونى ومن أنت؟

فك قيدي واتركني أذهب لقد سئمت عبث الشيطان بالإنس.

تتكبرين علينا يا بنت الإنسان.

ألم تعلمي أنك مصنوعة من طين لازب، هيكل يأكله الدود، ضعيف البنيان، تحركه الأهواء.

نعم أعلم، ولكن بداخلى شيء لا تملكه أنت ولا أمثالك.

وما هذا يا إنسية؟!

روحي يا إبليس إنها روح الله بداخلي.

نفخ فينا، بنو آدم، من روحه؛ فأصبح يحمينا من أهواء النفس التي تحركها شهوة النفس العابثة. ذلك المدخل الذي تستخدمه لضلال البشر حتى يجلس على مقعد من نار جهنم مثلك.

كيف تتحدثين هكذا؟!

وكيف تملكين تلك الشجاعة؟!

ألم يسري بداخلك ضعف الإرادة وسوء الظن والخوف مني؟!

قلت: لم أخاف من جبان متخفي، يرتدى زي ملائكي مزيف. ادعى الإيمان وهو مغرور متكبر.

قال: سوف آخذك إلى الملك الأعظم صاحب مملكة النار الكبرى حيث براكين الشر بكل مكان، حيث عذاب الأرواح وصراخ وعويل وصيحات الندم تدوي بالأرجاء.

واقتربت مني تلك الروح، مدت يدها تكسر قيودي وتحررني من تلك الشجرة. هويت بجسدي البائس على الأرض وحاوطتني تلك الروح السوداء تلف ردائها الشيطاني بدخان حالك مثل سواد الليل وعتمة صدر كافر. حاولت الهرب ولكني لم أستطع فقد كان حصار الروح أقوى مني.

حملتنى وكأني لعبة بكفها العريض تطبق يدها على وطارت بعيدا بعيدا، فنظرت إلى أسفل، فوجدت تنين مجنح ينفث نار بكل مكان..يحرق قلوب المحبين ويشعل فتنة بقلوب المخلصين الأحرار.

فجاءت إلي تلك الفكرة المجنونة التي ستكون طوق نجاتي. كان بجيبي زجاجة من ماء طاهر فأخرجته وحاولت فتحه بفمي

ونثرت بضع قطرات من ذلك الماء الطاهر على يد تلك الروح التي تحكم قبضتها علي.
فاحترقت وارتخت عضلات كفها القابض علي؛ فهويت من أعلى وهي تصرخ من ألم النور الطاهر ومن ماء تختلط ذراته بأحرف وآيات الله القاهر.

هويت بالهواء بسرعة بالغة حتى وقعت على ظهر ذلك التنين وهو يفرد جناحيه. كدت أصعق من سوء حظي ولكن وزني لا يتعدى الكثير فتعلقت بريشة منه، واختبأت بين طيات الريش الذي يكسو ظهره. كنت أنظر من تحت الريش إلى أسفل لأجد أرواح سوداء وتنانين كثيرة تملأ سماء إبليس. كانوا يبحثون عني بكل مكان، فقد رأيت تلك الروح التي كنت بقبضتها. تراجعت على الفور حتى شعرت بذلك التنين يهبط على الأرض ويمشي بخطى متثاقلة؛ فرفعت عيني أستطلع ما يحدث، فوجدت مكان مليء بأحجار و دخان يخرج من الأرض و أرض يابسة جرداء وبنهاية تلك الأرض جبل عال تعلوه قلعة لها أربعة أعمدة كبيرة. يحرسها تنانين و أرواح هائمة وحيوانات لم أرى لها مثيل و عمالقة من شتى الأنواع. ومن أسفلها يحرسها ثعبان الكبرى يحيط بذلك الجبل ويرفع رأسه ويخرج لسانه يستشعر أي حركة قادمة. علمت حينئذ أنني ببيت إبليس ووسط جنوده.

أدركت حينئذ ما هو الشعور الحقيقي بالخطر وأن تكون محاط بالأخطار وكيف تكون فرصة النجاة معدومة وكيف تمر اللحظات كأنها أعوام وأعوام وتمر الثانية وكأنها دهر بأكمله. توقف عقلي لبرهة من الزمن، وكاد قلبي يبكي من الألم

ويشكو لربي سوء عاقبتي فيا ويلي من فرط أحزاني،
ويا ويلي من سوء حراسي، ويا دمع قلبي
من فرط عجزي ومن ضعف إيماني لكني بالرغم من ألمي أناجي ربي بدجى الظلمات كما ناداه يونس النبي واثقا به، بأنه ملاذه وقت الضيق، وأن النور والخلاص بيده.

***

الأسر

كثير منا يعيش أسير نفسه وهواه، قد يعيش الإنسان أسير شيطانه. يقع بالأسر عندما يتملكه الضعف وتزداد قوة الشر؛ فيرضخ بالذل، و يرضي بالانكسار، بل وتهتز ثقته بنفسه وبكل المحيطين به. يقع تحت طائلة السجان الذي لا يرحم ولا يشفع بل ينحني له كعبد ينفذ ما يأمر به بل ينحني له وكأنه الإله الأعظم.

أرخى الليل عباءته السوداء وأسدل غبار الحزن على الجميع وبدأت دوريات الأرواح الشريرة تتناوب لحراسة القلعة والجبل. انتهزت الفرصة و انزلقت من على ظهر التنين؛ أتسلل أهرب بعيدا عن ذلك المكان، فكنت أسير بخطى خاطفة على أطراف أصابعي. فكلما تحركت التنانين كلما زاد خوفي وتوقفت بمكاني. حتى يسكنون مرة أخرى، فأسير بخطى خاطفة.
بعدت بعيدا عن المكان بالقرب من الغابة، فهرولت إليها أحتمي بأغصانها وأتلحف بأوراقها، ولكن عندما وطئت قدى بداخلها كنت أسمع صرخات بكل مكان. صرخات تعذيب تصدر من قلب الغابة وصدى الصرخات يدوي بالأرجاء.
تقدمت وأنا بغاية التعب والإرهاق إلى أن وصلت إلى مكان يتوسطه كوخ صغير يصدر منه نورا خافتا.
فاقتربت منه أنظر من فيه من خلال نافذة صغيرة.

نظرت فإذا بإنسان مثلي يجلس على كرسي، أمامه موقد من النار وبيده قدح من الشاي. ففرحت من داخلي فطرقت الباب طرقات خفيفة فلم يهتم ولم يجب.

فنظرت بالنافذة لأجده لا يتحرك من مكانه. فرجعت أطرق الباب مرة ثانية وأقول من فضلك افتح الباب!!

وصرت أطرق الباب طرقات عنيفة؛ فانتبه إلى تلك الطرقات وخطى خطوات قليلة؛ ففتح الباب فاندفعت للداخل بسرعة التقط قدح الشاي الذي كان بين يديه. أغلق الباب بسرعة وقال لي: من أنت؟؟

شكلك غريب عن سكان الغابة. ؟

فقلت له: أنا مريم جئت من الأرض لمهمة.

أية مهمة؟!!

قلت يقولون أني ملكة العوالم السبعة. وأنني الوحيدة القادرة على توحيد تلك العوالم بالحب وبراءة الطفولة الكامنة بقلبي.

ولكنك صغيرة جدا.

نعم صغيرة ولكنه قدري أن أدفع ثمن أخطاء جدي.

جدك!!

نعم جدي فقد رحل لمواجهة إبليس وفتح الفجوة بين العالمين عالم الإنس وعالم الجان.

ولكن من أنت؟!

ولماذا تسكن وحدك بتلك الغابة الموحشة؟!

وما هذا الكوخ الصغير ولماذا لا تستطيع الأرواح مهاجمته؟!

قال: أنت أول شخص أراه منذ عقود طويلة. جئت إلى هنا بعد ما تخطيت الحدود وحاربت قوانين الطبيعة. جئت بعدما اغتالتني أطماعي وصورت لي أنني أذكى رجل بالعالم.

تنهد الرجل تنهيدة طويلة، فقد كان متوسط القامة ذو شعر أجعد وعيون سوداء وبشرة خمرية. يسكن كوخ صغير ويضع تلك المساحيق البيضاء بدائرة تحدد بيته ويعلق صفحات من القرآن بكل مكان وكانت تلك الصفحات تضيء المكان مثل القناديل. جلست وأنا مرهقة من الرحلة الطويلة وقلت له:

ما اسمك؟

قال ما يفيد اسمى بعد أن نفيت عن وطني، وأهلكت نفسي بنفسي، و آويت إلى ركن الشيطان، وتخلى عني.

قلت: إنك من الإنس والله يحبنا رغم ضعفنا، فباب رحمته مفتوح دائما.

قال: اسمي محمود

قلت وعلامات العجب قد ارتسمت على وجهي، جدي الذي رحل يحارب إبليس أيضا كان اسمه محمود.

هل هذه صدفة أم أنك بالفعل جدي!!!

هل تقص علي قصتك كي أتبين الحقيقة وأعرف هل ما يجول بخلدي صحيح أم لا؟!

ماذا يجول بخاطرك؟

أن تكون أنت جدي الأكبر الذي كانت تحكي أمي عنه وعقد عهد مع الشيطان.

ومن أمك وما اسمها؟

أمي اسمها ليلى.

ليلى...ليلى...ليلى

آه...آه...آه...آه.. آه

أنت التي قالوا عنها، أنت من نسلي الذي سيرد الكيد،
و يطفئ ظمأ المظلومين، أنت من سيقوم الحرب لأجلها وترضخ لها المقادير.

أنا جدك يا مريم، أنا جدك البائس الحزين، أنا السجين هنا منذ قرون أنتظر العفو من رب العالمين، أنا الذي جفت دموعه من الندم على ذنبي.

وماذا حدث يا جدي عندما اختفيت فجأة؟

قال جدي: تخيلت أني بكل التعاويذ السحرية التي تسخر الجان لى أننى قادر على خوض تلك الحرب ولم أعلم أنى دخلت إلى فجوة من الزمن انعدم فيها كل شئ. إنعدم الإحساس بالزمان والمكان؛ فصرت أحيا ولا أحيا وأموت ولا أموت.

دخلت ذلك الدهليز الزمنى تدفعنى تلك الموجات العاصفة على شكل دوامات دائرية وبقيت معلق بها سنوات حتى دفعتني تلك الموجات إلى سطح كوكب رمادى، كل مافية قاتم فنظرت حولي، لأجد أتباع إبليس ورائي فهرولت أجري وأجري، حتى اختبأت بين صخرتين كبيرتين وأخرجت كتاب التعاويذ السحرية ولكن قبل أن أستطيع أن أفتح الكتاب وصل إلى أتباع إبليس وقد كانوا ثمانية من العفاريت على رؤوسهم قرون كبيرة، أجسادهم ضخمة، ظهورهم منحنية إلى أسفل وأقدامهم مثل حوافر الخيل. اقتربوا وأحاطوا بي وطوقوا المكان الذي اختبأ فيه. فأخرجت سيف سيدنا سليمان وشهرته بوجوههم ورفعته بالهواء معلنا الحرب عليهم إلا أن السيف أصدر شعاعا

موصول بنقطة من السماء، فأنار المكان كله، وأصاب أتباع إبليس العمى،
ونازلتهم بالسيف وتغلبت عليهم.

وبقيت وحدي بذلك الكوكب أبحث عن مأوى أو طعام. كان اليوم بهذا الكوكب بسنة من على الأرض الشمس تطلع من المشرق وتغرب بعد عام. بحثت طويلا فوجدت كهف بوسط جبل وبحث عن ماء، فلم أجد حتى جف حلقي، فحفرت الأرض، لعلني أجد ما أرتوي به، فلم أجد، فاستلقيت بالكهف أنتظر الموت. كان بجواري سيف سيدنا سليمان فرفعته بيدي وأنا أقول يارب الغوث والماء. انهطل الماء فشربت وجرى الماء بالعروق ودبت بي الحياة من جديد.

وبعد وقت ليس بالطويل وقفت أنظر من مدخل الكهف فإذا بي أرى ثلاث ومضات كأنهم النيازك، أو الشهب تهبط على سطح هذا الكوكب، فعلمت أنهم ربما أتباع إبليس. فأخرجت كتاب التعاويذ وبدأت أرسم دائرة حولي وأتلو ترانيم النجاة وأستجمع قوى الشر وبالفعل جاءت جيوش من الجان والشياطين وتدافعت حولى تنتظر الأمر منى. فوقفت وأنا أحمل بيدي سيف سيدنا سليمان بيدي فانحنوا لي طائعين.
ووقفت وأنا ورائي جيش من المردة والجن يواجهون أتباع إبليس ودارت بيننا حرب طاحنة. كانت حيوانات الغرفين والثعالب المتوحشة السوداء تصدر عواء وتهاجم أتباعي بشراسة. تقطعهم بأنيابهم السامة حتى بقي معى القليل منهم. لم يستطع أتباع إبليس الاقتراب مني حتى وقع السيف من يدي وانهالوا علي

ووقعت بالأسر فمددت يدي بسرعة التقط السيف ووضعته بثيابي فلم يجرؤ أحد أن يقترب مني. وأخذوني إلى ملكهم الذي عقدت معه العهد ووقفت أمامه وهو

يقول: خنت العهد الذي بيني وبينك يا إنسان. وقد لبيت لك كل ما تطلب. خنت ملكا خلق من النار.

قلت: أخطأت وظننت أنك سندي وأملي وغويتنى حتى ذهبت الراحة مني وضاع أمان قلبي.

إبليس: وأي أمان تقصد!! وأنا الذي يلبي لك كل ما تطلب. وأنا الذي يأتيك بالأخبار والأسرار ليلا.

قلت: خاننى قلبي فأحببت أم الصبي وشوهت جمالها وحرقت قلبي.

إبليس: تعلم الصبي القرآن وتتلو سورة البقرة. ألم تعلم أنها تحرقنى وتدمرني وهي سلاح المؤمن ضدي.

كنت أسمعك تتلو الآية تلو الأخرى وأبتعد عنك حتى لا أنفجر غيظا.

قلت: إنه قلبي الذي مال وهوي جنة الخلد.

إبليس: لن يغفر الله لك ولن يقبل توبة عاصٍ مثلك.

قلت: باب الله مفتوح لأمثالي لأنه علم ضعفي وذلاتي.

أعطاني الله الفرصة لأمحو ذنبي وأبكي على خطأي و خطيئتي.

صرخ إبليس من الألم

وقال: لماذا يا ربي تغفر لمخلوق مثله، يخطئ ويخطئ ويخطئ وتغفر وتغفر وتغفر. وكنت أنا المدلل المقرب وأصبحت لعين مبغوض منبوذ من جنة الخلد. جعلت ذلك العبد يسكنها رغم

زلاته ورغم ذنبه. وأنا الحاقد الناقم على ذلك الذي وهبته صك الغفران عندما يلجأ إليك بكلمة و يتقرب إليك شبرا.

استشاط إبليس غيظا وكمدا وقال لأعذبنك عذاب لم يتذوقه أحد ونزل من على كرسيه واقترب مني رويدا رويدا وكنت محبوس بقفص من حديد صلب وحجم جسدي صغير بالنسبة لهم. وما إن اقترب حتى خارت قدماه ودب الضعف فيه وتراجع عني بخطوات للوراء وصرخ وقال: إنك تملك خاتم سليمان العظيم مسخر الجن والشياطين.

فقلت له نعم وأملك أعظم من خاتم سليمان.

إبليس: ما هذا الذي تملكه أعظم من خاتم سليمان.

قلت: كتاب الله..القرآن. فأخرجته من عباءتي فانهار إبليس وصرف نظره عني وتراجع الجميع إلى الوراء بسرعة وكأنني أخرجت النور الإلهي الذي يبيد الظلام والظلمات. وذابت قضبان القفص الذي سجنت فيه ورفعت يدي ببلاط قصر إبليس أطلب العون من الله ورفعت القرآن عاليا بيد وباليد الأخرى خاتم سيدنا سليمان. فاختبأ الجميع من هول النور الذي غمر ساحة القصر والمملكة فهربت ولم يجرؤ أحد على اتباعي. فكنت أسير بينهم ويتفرقون بكل اتجاه حتى تلك التنانين كانت تفسح الطريق لي حتى دخلت تلك الغابة وصنعت ذلك الكوخ ونثرت مساحيق مخلوطة بآيات التحصين ووضعت المصحف وفتحته فكان ذلك القنديل الذي ينير ظلام تلك الأيام الموحشة.

أتعلمين يا مريم أنني ختمت القرآن آلاف المرات وتعبدت بذلك الكوخ رغم صرخات المعذبين التي تدوي بالأرجاء. تعبدت لله

وعبدت الله بأرض عدوه وهو يتربص لي. ينتظر الفرصة حتى يقضي على ذلك المخلوق الذي تجرأ وعبد الله بأرضه.
و تعلمين أيضا أن الملائكة تحرسني فقد ناجيت الله كثيرا وسمع مناجاتي فكنت أشعر بأجنحة من نور تضمني وتنزع سواد القلب من صدري. وتعلمين أيضا أن الشيطان يصرخ كل يوم وأسمع صرخاته وكأنه يئن من بقعة النور التي لا يستطيع أن يقترب منها وإلا احترق وهلك و انشقت الأرض تبتلعه.

كنت أستمع لحديث جدي وعلمت الحكمة من اختفائه؛ حتى يعطيه الله الفرصة ليتوب ويرجع عن طريقة الشيطاني. علمت كم من العطايا بين المحن. علمت أن إدراك كل الحقيقة مستحيل. علمت أن رؤيتي للأشياء من زاوية واحدة فقط ولا يمكن إدراك كل الزوايا. علمت أن المستقبل بيد الله هو، حتى القلوب ومصائر العباد تتغير بين لمحة وأخرى وبين لحظة وأخرى.

علمت أن الكمال غاية لا تدرك ولكن شرف المحاولة بأن تكون كما قال الله، هو الذي يستحق المجاهدة.

نظرت إلى جدي وعلامات الرضا بدأت تتسلل إلى وجهي بأن ما اختاره الله خير لي حتى لو بدا غير ذلك.
وبدأ جدي بسؤالي كيف جئت إلى هنا؟

فبدأت أقص عليه رحلتي وكيف استقبلتني ملكة النور بقصرها البلوري العائم على نهر فضي بالهواء وكيف كان الفينيق يطير بي ويعلمني كيف أجتاز الاختبارات.
وقضينا الليل كله نحكى بالذكريات و ارتسمت تلك البسمة مع سنا الضوء الذي يضيء الوجوه لصفاء الصدر وسلامته.
غفت عيناي ولم يغفو قلبي وأنا نائمة بين ذراعي جدي أتلمس نبض أمي وعبيرها فيه.

***

العودة

كل منا يضل الطريق ولكن سعيد الحظ هو من يدرك حقيقة وجوده قبل فوات الأوان.

وبينما أنا نائمة بين ذراعي جدي وهو يتلو القرآن بصوت ملائكي يتردد صداه بأذني، رأيت أمي بثوبها الأبيض وعلى رأسها تاج من الياقوت تمد يدها إلي فهرولت إليها ولكن قبل أن أصل إليها ظهر حصان أسود أجرد من الشعر عملاق وقف بيني وبين أمي وكاد يدهس جسدى فهربت منه وكان يجري خلفي يسابق الريح حتى يعضنى ويتخلص مني فوجدت جدي، احتميت خلف ظهره وأشهر سيفه بوجه ذلك الحصان العابس فاختفى فجأة.

استيقظت من نومي أبحث عن جدي. وجدته يصلي ويشكر الله على أن التحم القلب بالروح وبعثت إليه وهو بجنح الظلمات.

وإذا به يتوجه إلي ويقول:

حان الآوان يا مريم حتى ترجعي إلى مملكة النور وتوحدي عوالم الخير لمواجهة الشر. ونزع خاتم سليمان من يده وأعطاه لي وقال: هذا من سيحميك وبه سترضخ العوالم الخفية لك.

فقلت يا جدي ولكن هل تعطيني الخاتم الذي يحميك من عدوان إبليس وأعوانه؟

قال: إن العالم يحتاجك أكثر مني.

قلت: ولماذا لا نكون سويا بمحاربة عدوي وعدوك.

في الاتحاد قوة وبقوة الإيمان تقوى العزائم.

جدي: لكني ضعيف البنية وأخشى أن العمر قد حان وموعد اللقاء مع المحبوب قد أزف.
قلت: لا تتركني جدي وحيدة ولا تتخلى عني.
جدي: إن الروح لا تموت يا مريم أبدا بل ما يموت هو القالب الذي تسكن فيه الروح. ستتحرر الروح وتطوف الكون كله وسيكون بيتي بالجنة وسأرى ربي وأتقرب منه، أشكره على حلمه على وعلى صبره على عبد عاصٍ مثلي.
قلت: جدي أريدك بجواري وخبرتي قليلة وعدو شرس قد يفتك بي.
جدي: الخبرة تنبع من التجربة ومازال الوقت أمامك حتى تتعلمي فن الريادة.
والآن خذي خاتم سليمان وإنتظري بجواري حتى أتلو وأتوسل الله لفتح باب جديد لتعودي إلي مملكة النور.
أخذ جدي يتوسل إلي الله ويتلو بعض من العبارات بصوت خافت ففتحت تلك الفجوة وقال جدي لى: هيا مريم أسرعي؛ فقبلت جدي واحتضنته، ووعدته بالعودة حتى أنقذه، ولكنه قال تعالي وجهزي جيش يكون القرآن ساكن فيه. وقتها شعرت بنبض قلبي يخفت، وكأن جدي فارق الحياة وذهب للقاء حبيبه بالسماء.

وجدت نفسي بساحة قصر الملكة نور وكان الحراس يحيطون المكان من كل اتجاه. هرولت أجري داخل القصر البلوري فوجدت الملكة وقد جمعت كل قادة الجيش وكان هناك محاكمة للضينيق لأنه أهمل تدريبي واختفيت منه ولم أرجع كعادتي بعد كل اختبار.

كان الفينيق يقف مطأطئ الرأس حزين مكسور القلب.
فناديت الفينيق بصوت جهوري عالي
قلت: ياصاحبي؟!
التفت إلى الجميع وكانت علامات الذهول والدهشة تعتلي تلك الوجوه المضيئة. فأسرعت أحتضن الفينيق فنظر إلي بعينيه الدامعتين وكأنه يقول أين كنت؟
ولماذا لم ترجعي مثل كل مرة؟!
قرأت بعينيه أسئلة وشكوك ومخاوف تدور بعقله ولكن أيضا قرأت بعينيه علامات الحنين لمشاكستي البريئة.
فمسحت على رأسه بيدي وانزلقت دموع الحب من عينيه تلك الدموع الباردة التي تحمي القلب من صدمات الحياة وتقول لله شكرا على نجاتي.
وقفت الملكة نور وهي تكاد تطير بأجنحتها الملائكية وتتقدم تجاهي وتقف بجانبي
تقول: أهلا بعودتك.
التفت إليها ودموعي تنساب وكأنها أنهار من ماء عذب يروي ذلك الشعور بالحنين إلى تلك الوجوه وتلك القلوب التي غمرتها تقوى القلوب والإيمان بالله.
التفت إليها وارتميت بأحضانها وكأني أريد أن أتخلص من كل تلك الأعباء والهموم والأحزان التي رأيتها. وهمست بأذنها وقلت: أنت النور الذي شق الأفق وكان لي نورا يضوي بين نجوم السماء.
احتضنتها الملكة وهي تقول:
قد كان الفينيق على وشك الموت.. وهنا كل القادة ليحكموا عليه بالموت.

قلت: لماذا؟!

الملكة: لأنه أخل بالقواعد ورجع من غيرك فظننا أنه غير أمين عليك.

قلت: لا، الفينيق خير معلم وصديق ولكني كنت بمملكة إبليس وكاد يأسرني وحاوطتني الأرواح والأشباح من كل مكان وكان صوت إبليس يدوي بالآذان. ولكني نجوت من الأسر وقابلت جدي محمود هناك بكوخ وسط غابة الأحزان يبكي خطيئته وسط ظلمات النفس.

الملكة: حقا رأيت جدك!!

إنه لخبر سار يا مريم أن نسمع الأخبار ونرصد حركة العدو من قرب.

نادت الملكة قادة المملكة وأمرت بالتشاور والاستماع لي ولما حدث معي.

اجتمعنا بغرفة المداولة وبدأت أسرد وأقص رحلتي وأصف الطرق والمنحنيات والكائنات هناك. ووصفت قصر ومقر إبليس الذي يوجد فوق جبل عالي وتحرسه الأرواح السوداء من فوق ومن أسفل يحرسها ثعبان الكبرى. ووصفت التنانين والأحجار السوداء والمكان القحل والغابة بظلالها السوداء.

فبدأ كبير القادة يدون كل كلمة أقولها ويرسم مخطط للمكان ببراعة وكأنه يرسم الحقيقة.

ثم سألتني الملكة هل هناك شيئا آخر يا مريم.

ترددت كثيرا في أن أخبرها عن خاتم سليمان الذي أعطاه لي جدي. ولكنني أخرجته من جيبي ووضعته على الطاولة المستديرة وتراجع الجميع إلى الخلف مذهولين من المفاجأة.

قلت: هذا خاتم الملك سليمان مسخر الجن والعفاريت قد أعطاه لى جدي وينتظر قدومي بجيش من القلوب التي لا تخاف من اللّه لومة لائم. جيوش لا تهزمها أصوات إبليس ولا ألاعيب إبليس اللعينة. فهل أنتم معي أم مازال الوقت مبكرا لمحاربة عدو اللّه بالكون.

نظر لي القائد نصر وقال: معك يا ملكة العوالم السبعة. وانحنى لي الجن بما فيهم الملكة نور...ورفعت الخاتم عاليا وانبعث منه شعاع أخضر يمتد إلى السماء فاهتزت المملكة كلها شدة النور الإلهي.

وضعت الخاتم باصبعي وأنا أقول اللهم قوة وملكا وسلطانا يقهر عدوك وعدوي.

وانصرف الجميع وبقيت أنا والملكة نور والأميرة ريم وحدنا...

قالت الملكة: أعلم أنك خضت عذاب النفس بتلك الرحلة الشاقة يا مريم. وأشفق عليك من الحرب الدائرة منذ الأزل ولكنك ملكة بقلبك الصغير الطاهر النقي.

قلت: لولا المعاناة التي يخوضها الإنسان لما كان الإبداع ولما كانت حلاوة النصر وحلاوة الإيمان التي يشعر بها الإنسان. استشعرت قوتي عندما كنت بجوف المخاطر ولم يكن بجانبي أحد سوى اللّه...تذكرت آيات القصص بالقرآن عندما كان يونس ببطن الحوت وحده فأنجاه اللّه من الخطر الداهم. علمت أن المقادير والأقدار بيد اللّه الواحد القهار. علمت أنني أضعف مخلوق من غيرة وأقوى مخلوق به.

كنت وحيدة تائهة ولكني وجدت جدي بكوخ صغير يشع ضوء الإيمان من كل أرجائه. كانت آيات القرآن قناديل ومنجاة

الله وكأن الله هو صديقه وملاذه فأصبح الكوخ قصر بنظر جدي واستأنس بالملائكة حوله. فكيف لا أتعلم من تلك النعمة التي حظي بها جدي وهي الفرصة الثانية التي أعطاها الله له حتى يتوب عليه. اختبر الله قدرته على الصبر فكشف له حجب الغيب. وفتح لي باب حتى أكون هناك وسط النور.

قالت الأميرة ريم: كنت أعلم أنك مميزة يا مريم. ونحن معك حتى نطهر عوالم النفس من عدو متربص لها بكل وقت وحين.

قلت: لم أكن أبدا مميزة ولكن الله حباني بكم فارتوي القلب من حبكم وكأنه ينهم من فيض كرمكم حيث لا يوجد مكان للغل والحقد والتصارع على أعراض الدنيا الزائلة.

الملكة: سنرتب أمر الحرب ولعل الله ينصرنا على عدونا ونجتاز كل اختبارات النفس القاتلة.

والآن ارتاحي، مريم، من عناء الرحلة وعذابها.وانصرفت الملكة والأميرة وانصرفت أنا أيضا لغرفتي حتى أنال قسط من الراحة. وبطريقي سمعت همس من خلف عمود بلوري ينادي على.. فتوجهت أبحث عن مصدر ذلك الهمس. فخطوت خطوات واجفة، فإذا بي ألمح طرف رداء قديم كالذي كان يرتديه جدي، انقبض قلبي فأسرعت أنظر من الذي خلف عمود القصر.

نظرت فاذا به جدي، لم أكد أصدق أنه هو.

قلت: جدي هل هذا أنت حقا!!

هل قفزت بتلك الفجوة ودخلت ذلك الباب الذي فتحته خلفي.

جدي: نعم أنا جدك يا مريم!!

عندما أعطيتك الخاتم قلت قوتي وخارت تلك العزائم التي كانت تحيط بي تحمي الكوخ وهاجمتني الأرواح تريد الدخول

إلى الكوخ واقتلاعه بالقوة..ولولا القرآن لكنت الآن أسير إبليس. ونظرت فوجدت الفجوة التي فتحتها لك مازالت مفتوحة فقفزت فيها وأغلقتها فور دخولي بها..فوجدت نفسي بذلك المكان.

قلت: كم أنا سعيدة جدي أنك بجواري لقد ظننت أنك بعداد الأموات ولكن الله أعطاني الفرصة الثانيه كما أعطاها لك. فرصة وجودك بجانبي تؤازرني بكل قوة وخبرة. ولابد من إخبار الملكة وأهل المملكة أنك هنا.

هرعت أجري وجدي خلفي أنادي بأعلى صوتي وأنا أرقص من الفرحة يا ملكة ويا أميرة يا سكان المملكة يا نور الله بالأرض والسماء أين أنتم؟!!

استيقظ الجميع وهبت نسائم الحب والتفت حولي الفراشات والجنيات والحرس وجاءت الملكة والأميرات وأسرعت للملكة وأنا أشير إلى جدي وأقول لقد جاء جدي..لقد جاء جدي.

التف الحرس حول جدي وهو ساكن لا يتحرك وقالت الملكة: حقا هذا جدك يا مريم!!

حقا هذا هو البشري الذي تحدي إبليس!!

حقا هو أنت الذي تملك الجرأة وتسير بخطى واثقة لمحاربة عالم خفي لا تدرك عنه شيء!!

قلت: نعم إنه جدي... هو من يملك سيف الحق وسيف سيدنا سليمان.

ارتجف الجميع من سماع سيف سيدنا سليمان.. فقلت لجدي هيا أخرجه يا جدي هيا حتى يرونه بأعينهم.

مد جدي يده تحت ردائه وأخرج سيف يلمع بلون أزرق سماوي ومرصع بجواهر أرضية و أحجار الكوارتز...
فانبهر الجميع فقد بدا بذلك المهند أنه يحتوي على عوالم كثيرة..وكان يصدر منه قوى عجيبة تجعل من ينظر إليه ينجذب إليه.
رحبت الملكة نور بجدي وقالت: مرحبا بك يا محارب النفس وإبليس. أهلا بك بعالم النور حيث ذرات القلب الشفاف النقي.
جدي: مرحبا بك يا ملكة النور..وعذرا أني اقتحمت المملكة هكذا ولكني لم أجد مخرج من هجوم الأرواح سوى ذلك المخرج التي خرجت منه مريم لتكون هنا.
نظرت الملكة للحراس وأشارت بالابتعاد عن جدي..وقالت له: سنتحدث بالصباح يا مريم...خذي جدك إلى الغرفة وتناولوا الطعام وارتاحوا اليوم من عناء الرحلة الشاقة.

اصطحبت جدي إلى غرفتي وأنا لا أكاد أصدق أنني معه وهو معي...ودخلت الغرفة وتحدثنا كثيرا عن أمي فقد كان جدي يحكي عن جمالها وكيف كان شباب القرية يتنافسون على الزواج منها.
كان يقول أن أمي كانت تجلس بجواره تتعلم القرآن قبل أن يعقد العهد مع إبليس..كانت ذكية تفطن الكثير من الأشياء.
ويقول أنني أشبهها ولقد ورثت منها تلك الصفات الجميلة.
وحكى لي عن والدي أحمد عندما رأى أمي ليلى لأول مرة وأعجبته كثيرا عندما رآها تجلس بصحن الدار تقرأ القرآن وتتغنى به عندما كان بصحبة أبيه عند زيارتنا.

يقول جدي أن أبي كان طويل القامة، أسود الشعر، خمري البشرة وعيون سوداويتين. كان ميسور الحال فتزوج أمي.. كان يحترمها ويحبها حبا شديدا بل كان يعشقها فكلما كان يراها يقول لقد رزقني الله بالجنة. ولكنه القدر يا مريم وإرادة الله أن يتوفاه الله بعد أن ينجب أختك الصغرى أماني بعدة أشهر..فأصبحت أمك وحيدة ورفضت الزواج مرة أخرى وفاءا لأبيك..لكنه خطأي هو الذي جاء بك إلى هنا بعيدا عن أمك فأصبح قلبها المكلوم يتمزق من الحزن على وحدتها وعلى فقدها إياك.
نمت تلك الليلة قريرة العين وكأن الله أمدني بقوة آلاف المحاربين وبسلامة صدر الصالحين الأتقياء. كنت كاليرقة التي تسكن شرنقتها وأنا بين ذراعي جدي وكأنني بالمهد أتلمس الأمان الضائع مني. ونام جدي وعلامات الرضا تعلو وجهه المشرق وكأنه ينام بين أحضان الملائكة. أو كأن الله ينظر إليه فيبتسم.

أطلق الفجر جناحيه ليفرد ضياء الأمل بين أنامل الأيام. وشعرت لأول مرة وكأنني فيثارة تصدر تلك الموسيقى و كأن جدي هو العازف على تلك القيثارة بأنامله الذهبية.
غرد الفينيق كعادته وأطلق تلك التغريدات يناديني:
هيا يا مريم! هيا يا مريم!!
فإنطلقت أقفز من على الشرفة بالهواء و تلقاني الفينيق كعادته فاندهش جدي من شجاعتي.
وطار بي الفينيق يجوب أرجاء المملكة وكأنه يحتفل بقدومي وكأن السعادة التي يعيشها الفينيق وأنا مثل سعادة حبيب التقي بعد طول فراق بحبيبه. وكأنه اكتمال الهلال بكله وكيانه.

وأصبحنا أنا والفينيق مثل قوس النور وسهم الحياة التي تصيب من حولها بالبهجة.

هبط بي الفينيق بعد جولة من الترحاب علي سفح تلة صغيرة، يكسوها بساط أخضر فهبطت من على ظهره وأنا أربت عليه بحنو. ووقفت أمامه أعانق رقبته. فإذا به يتحول إلى ذلك الرجل ذو الطلة البهية، تخطف نظر أي كائن كان.تأملته وتأملت عينيه والتقت عينانا فحكت لي على ذلك الشعور الغريب بالحنين إلي...

قلت: لم هذه النظرات ولم هذه الشكوى!!

قال: إنه الاشتياق اليك لقد جن قلبي يوم أن اعتقدت أني فقدتك.

قلت: إنه اشتياق الصديق لصديقه. أليس كذلك!!

قال: ليس كذلك يا مريم.

قلت: وماذا يكون إذا.

قال: عندما تشعرين بالألم ودموعك تسقط من عينيك رغما عنك وترتجف شفتيك عندما يذكر أحدهم اسمك. وتتسارع نبضات قلبك عند رؤيته. هل هذا اشتياق أم أنه الحب. إنها مشاعر لم أمر بها من قبل بل أشعر وكأن تلك المشاعر مهد لشيء جديد.

قلت: لكنك من الجن فكيف تحبني!

قال: نحن جن مؤمن و كنت منذ صغري أسمع عن زواج الكثير من الجن بالإنس. فهل هذا ما يحدث معي؟؟

وهل تلك المشاعر هي مزيج من الحب والاشتياق؟؟

فهل تشعرين نحوي بنفس تلك المشاعر أم أني تجاوزت حدودي ؟

قلت: لا أنكر أنك رفيقي ومدربي ومؤنسي وقت الوحدة. تعلمت على يديك الكثير وينتابني ذلك الشعور بالفرحة عند رؤيتك.

قال: هل تقبلين بزواجي منك يا مريم.

قلت: لم لا! تملك مالا يملكه الإنسان...نور بالقلب وأمانة بالحب...ولا تخونون أبدا. ولكني سأستشير الملكة أولا.

اندفع الفينيق نحوي وقبلني قبلة اشتهى جسدي كله أن تغمره شفتاه بذلك الحنين والحنو. نظر إلي وقد احمرت وجنتاي من الخجل وقال هذا ما يفعله الجان عندنا يعشقون. يمتلكون أرواح وأجساد معشوقيهم.

قلت: ولكن كيف ذلك أليس هذا مخجلا قبل الزواج؟

قال: عندنا لا، فهذا هو الرابط الأبدي ولا نفترق أبدا أما أنتم فتفترقون.

قلت: هل هكذا أنا زوجتك؟!

قال: نعم ولكن لأنك من الإنس سنعلن مراسم الزواج على الملأ وستكون الملكة هي التي تلبسك تاج العفة.

قلت: هل للزواج تاج عندكم؟!

قال: نعم

نظرت إلى الأرض فرفع قامتي إليه وتحدثنا حديث عشاق وكادت أرواحنا تلتحم مع بعضها فغمرني ذلك الضعف البشري وصرت بين يديه أشتهي لمساته التي تتخلل خصلات شعري وقبلاته الحارة التي وكأنها العسل المصفى.

فأدركت ضعفي وهربت بعيدا عنه

وقال: أتهربين من قلب أحبك!!

قلت: بل أهرب من ضعفي أمامك.
قال: ستكون مراسم زواجي بك كأسطورة يتحاكى بها البشر بقصائدهم بل سنكون نحن من نلهم العشاق عن كيف يكون العشق، وكيف يكون الحب بوجه الفتن.
قلت هيا بنا نرجع ونحكي للملكة عما حدث.
تحول الفينيق إلى طبيعته واعتليت ظهره وطار بي وكأن روحي هي التي تطير معه من فرط العشق وفرط السعادة التي غمرت قلب كل منا.

***

الزواج

كلنا تمر بنا لحظات الضعف البشري الذي ينسف خلايا الحياء بوجه كل منا. ولكن عندما يكلل الضعف بالحلال ويصبح بما أحل الله لن تخجل منه بل يزداد الوجه طلاقة وبهاءا من جمال العشق الإلهي والحب الطاهر الذي يجلي القلوب ويصبح زينة المرأة وحياؤها.

هرولت إلى الملكة نور أحييها وسط حشد من الجن فقالت لي: لي معك حديث يا مريم. وأمرت الكل بالانصراف. بدا على وجه الملكة علامات الريبة والشك والقلق، فقالت:

هل كنت مع الفينيق اليوم يا مريم؟

قلت لها نعم كنت معه وهذا ما جئت به لأخبرك إياه!

قالت: وماذا حدث بينكم يا مريم؟؟

قلت: لماذا هذا السؤال؟

قالت: لقد اهتزت المملكة اليوم؟

قلت: وما علاقة اهتزاز المملكة وما بيني وبين الفينيق؟

قالت: إن المملكة لا تهتز إلا لأمرين يا مريم، الأول هو أن يعشق أحد مخلوقات المملكة إنسية ويطلب زواجها، والثاني هو أن يهاجمها قوى خارجية شريرة.

وعندما دخلنا نستطلع الأمر بغرفة المرايا وجدناك مع الفينيق سويا على سفح تلة خضراء.

هل ما رأيناه صحيح؟

قلت: نعم صحيح...

الملكة: ولماذا كنتم هناك وبما كنتم تتحدثون؟
قلت: لقد صرح الفينيق بحبه لي وطلب الزواج مني بل وقبلني قبلة الزواج...
الملكة: ماذا تقولين!!!
قلت: هذا ما حدث ولقد قلت له أني سآتي إليك لأحكي لك عما حدث. بل وقال لي أنني سأرتدي تاج العفة على يديك وستكون هناك مراسم للزواج.
الملكة: وهل توافقين على ارتباطك نفر من الجن ليس من دمك أو جنسك أو فصيلتك.
قلت: ولم لا، البشر يخونون أما أنتم فلا تخونون.. زواجكم مؤبد إلى العمر كله.
الملكة: لكننا لا نموت وأنتم تموتون..وقوتنا أضعاف قوتكم.
قلت: مال قلبي لصديقي ورفيقي ووجدت لديه جمال الروح والقلب...ونبض قلبه ينبض بحروف اسمي..بل سنكون مثل الملائكة التي ستلهم الشعراء حتى يكتبوا عن الحب والعشق وكيف يكون زواج الإنس مؤنس لا موحش كما يدعي البعض.
الملكة: سأقابل الفينيق وسأتحدث معه...ولكن مادامت تلك رغبتك أن تكوني واحدة منا فلك ذلك فالحب عندنا إرادة من طرفين لا يستطيع أن يجبر طرف على حب الآخر دون رغبته.

تركت الملكة وقلبي ينتفض وروحي تعاتبني ونفسي تعذبني من تلك القبلة التي اغتالت قلبي وجعلتني بين يدي الفينيق لا أستطيع التحرك بل شعرت وكأني مقيدة من يدي مسلوبة الإرادة بين يديه. ولكن تلك القبلة التي بعثت تلك القشعريرة بجسدى وأصبح يرتجف ويرتعش بين بيده وكأنني

عصفور قد بلله المطر فارتجف وذهب إلى حضن أمه ليشعر بالدفء.

ولكن بقرارة قلبي كنت أميل إلي الفينيق بهيئته البشرية الخلابه.كان يرتدي جلباب أبيض من الحرير وشعره أشقر منسدل على كتفه وفمه كأنه خاتم سليمان وأنف صغيرة وجبهة يكاد يرى فيها المرء صورته من صفاءها وبياضها.

ذهبت إلى غرفتي فوجدت جدي جالس بالشرفة يتأمل مخلوقات الله ويقول ما أبدعك ربي ما أبدعك.!!

فجلست بجواره وقصصت عليه ما حدث.. علت علامات الحيرة على وجهه وقال لي هل وافقتِ على هذا الزواج يا مريم؟!

قلت: نعم.. لماذا يتعجب الجميع من موافقتي؟

جدي: لأن طبيعة البشر تختلف عن باقي المخلوقات.

قلت:وهل حرم الله مثل هذا الزواج ؟!

جدي: لا أحد يعلم هل هو حلال أم حرام. ولكن الله خلق لهم قلوب وخلق لنا قلوب...ومادامت القلوب توحدت ومالت فلم لا!!

جدي: لكنك صغيرة على الزواج يا مريم.

قلت: لا يوجد زمان هنا...نحن بتلك العوالم حيث يتوقف كل شيء حتى تقدم العمر.. على الأرض فقط يدرك الإنسان الوقت ويدرك كم من العمر مضى وكم من العمر باق.

نظر لي جدي وقال لقد دق قلبك دقات المحبين العاشقين.

ولكن لابأس من الزواج.

دعت الملكة الفينيق للمشاورة..قدم إليها على الفور...ولكن تلك المرة دخل بهيئته البشرية وألقى التحية.

الملكة: مرحبا بك. كيف كان يومك يا فينيق؟
الفينيق: بخير ولي طلب!!
الملكة: تفضل
الفينيق: أريد أن أتزوج مريم..أريدها لي.
الملكة: هل أنت واثق مما تقول؟
الفينيق: نعم واثق أني أريدها زوجة لي.
الملكة: هل تريدها بالفعل زوجة لك أم تريد أن تحصل على القوة التي تمتلكها مريم؟!
الفينيق: بل أريدها زوجة لي فقلبي نبض لها ومال وأحبها..وعرضت عليها الزواج وقبلت كما أني قبلتها قبلة الأزواج فأصبحت بعرف تقاليد الجن زوجة لي ويحق لي معاشرتها بل والمكوث معها بغرفة واحدة.
ولكني أريدها أميرة متوجة تتزوج بمراسم زواج أسطوري حتى تتهيأ نفسها لي دون خوف أو فزع.
الملكة: ما دمت قبلتها قبلة الأزواج فلا يحق لنا الاعتراض ومراسم الزواج غدا...فأخبرها حتى تتهيأ وسوف أرسل إليها من يهيؤها إليك.

أرسلت الملكة بعض الخادمات لمريم بغرفتها حتى يهيؤها لعريسها...فقاموا بغسلها و بوضع تلك الوصفات البشرية لتنظيف البشرة والجسد.
وفي اليوم التالى زينوها بأجمل الحلي وألبسوها أجمل الثياب وهي ثياب العرس فكانت كالملكة بأبهى صورة.. وكان أهل المملكة قد أقاموا الزينات وأطلقوا صغار الفراشات تطلق فقاعات بالهواء بكل الألوان والزينة..فنزلت مريم من أعلى

السلم المغطي بسجادة خضراء وبالأسفل ينتظرها الفينيق والملكة ورجال الدين بالمملكة. كان جد مريم بجوارها يمسك يدها وهي تهبط الدرج. وعند وصولها قام جدها بتسليمها إلى الفينيق وألبستها الملكة تاج العفة. ووثق رجال الدين زواجهما وأعطوا العروسين صكا بأنهم أصبحوا زوجين إلى الأبد.

كانت هناك عربة طائرة تنتظرهم.. صعدوا إليها وطارت بهم وسط صيحات الفرحة إلى منزلهم الجديد حيث الحب هو فراشهم والحنان لبساهم والصدق حالهم.

وصلت العربة إلى قصر صغير فهبط كلا العروسان فحمل الفينيق عروسته بين يديه وأدخلها عشها الجديد.
دخلت مريم قصرها الجديد المصنوع من الذهب ويجري وسطه نهر صغير من الفضة وعلى جانبيه غرف ليست بالكبيرة بها أسرة كثيرة. هرولت مريم تدخل من غرفة إلى أخرى وهي ترقص طربا وفرحا ويتبعها الفينيق وهو يطلق ضحكات السعادة. حتى أمسك مريم من يدها وهي داخل غرفة بها سرير دائري يتوسطها وبعض الأسرة على الأرض. قال لها لقد أصبحنا هنا وحدنا، لا يفصل بيننا فاصل ولا توجد حواجز. لف يديه القويتين على وسطها ورقص رقصة العشق ومريم ترقص وكأنها نغمة بين يدي الفينيق. حتى ثملت مريم من شهد النظرات بينهما وارتمت على سريرها الدائرى.

جلس بجوارها الفينيق وهو يتأمل جسد زوجته الممشوق ويمد يديه حول خصرها ليرفعها بيد واحدة أمامه ليمتص رحيق الحب من ذلك الجسد بكل جزء فيه وكلما قبلها من شفتيها كلما ثملت بين يديه و كأنها بعالم آخر لا تدرك سوى أن جسدها سرى به الشهوة الإنسانية.

حتى وصل الفينيق إلى ذلك المدخل حيث اللذة بين الأزواج.

***

القصر

اجتمعت الملكة والوزراء والقادة للتشاور لشن الحرب على إبليس وأعوانه فقالوا أن جدي محمود هو الذي يملك مفتاح الدخول الى هناك فهو الذي يستطيع فتح الفجوات والدوامات بين العوالم.

أرسلت الملكة رسولا إلى جدي لحضور ذلك الاجتماع، فجاء على الفور وهو يخطو بخطى سريعة، ثم ألقى التحية عليهم.

الملكة: هل آن الأوان لشن الحرب ضد إبليس يا شيخ محمود؟

جدي: لكن التخطيط قبل الهجوم لابد منه.

الملكة: ستكون أنت دليلنا بتلك الحرب فأنت من أقمت بأرض إبليس عشرات السنين وتعلم مداخل مملكته ومخارجها. كما أنك الوحيد القادر على فتح تلك الفجوات والأبواب بين العوالم.

جدي: أنا معكم بكل ما أستطيع من قوة أمدها الله لي.

وستكون مريم والفينيق سويا بمواجهة إبليس.. فمريم اليوم واحدة منكم والفينيق لابد له أنه أمدها بالقوة. وأنت تعلمين قصدي.

الملكة: نعم أعلم.. إن اتصال الإنس بالجن والزواج بهم يجعل من روح الفينيق الحق أن تسكن جسد زوجته بل ويعطيها قوته إن لزم الأمر.

جدي: فهل نستعد بدءا من بعد غد.

الملكة: سنطلق صفارة الحرب حتى يجتمع الرجال والجنود ونحشد أنفسنا حتى لا نتفرق.

جدي: نعم وسوف أخبر مريم بالأمر وزوجها.ليكونوا على استعداد تام.

جاء جدي وأطرق باب بيتي، يبارك لي زواجي.
ففتحت الباب له وتفضل بالدخول..جلس جدي على الأريكة التي تطل على نهر الفضة وهو يتأمل كم من الإبداع الذي خلقه الله.
جلست بجوار جدي وأنا أنظر إليه:
التفت إلي قائلا: مبروك زواجك يا مريم.
قلت: بارك الله لنا فيك جدي الغالي.
جدي: هل سري زواجك جيدا أم أن هناك أي أمر يزعجك.
قلت: أنا سعيدة بقراري يا جدي، لقد عشت البارحة مشاعر لم أعشها من قبل. لقد عوضني الفينيق بدفء حنانه فكنت بين يديه كالطفلة بين ذراعي أبيها حيث الاحتواء والاهتمام. كنا يا جدي مثل دائرة النور المكتملة. حقيقة يا جدي لقد اختلطت كل مشاعر الحب بقلبي ولم أجد وصف أستطيع وصف ما عشته البارحة مع زوجي.
جدي: الحمد لله يا حفيدتي على تلك النعم، نعمة الزوج الصالح أكبر نعمة يمكن أن يحظى بها إنسان، زوج يسمع نبض قلبك قبل أن ينبض، أن يهرول إليك قبل أن تتفوهي بكلمة الاحتياج إليه.زوج يسعى لسعادتك ورسم البسمة على شفتيك. زوج يراك عالمه وأنت ترينه دنياك.
قلت: الحمد لله على نعمة السكن يا جدي. لقد سكن قلبي إليه وسكن نبضه بقلبي فكنت داره وديار ورحله وترحاله.
جدي: هل أستطيع أن أراه أم مازال نائما.

قلت: بل هو يصلي بمحرابه ويتحدث إلى الله.
جدي: ماشاء الله...فانظري مريم هل أنهى صلاته أم لا!
قلت: بالطبع جدي.

ذهبت إلى زوجي بمحرابه فوجدته أوشك على الانتهاء من صلاته. فوقفت أنتظره وأنظر إليه وإلي تلك الدموع الحارة وكأن زوجي يترجى ربي شيء ما.
أنهى حديثه وصلاته ونظر خلفه فوجدني واقفة أنظر إليه فقال...هل البدر ينتظر إشارة الشمس أم ماذا يا ملكة القلوب!!
كان حديثه العذب ما يخلق بين الضلوع ذلك البستان من الزهور و بهجتها.
قلت: جدي هنا ويريد أن يراك.
الفينيق: جدك حقا!! ذلك العظيم الذي تهابه الملوك والسلاطين. فقد عظم إيمانه فخاف أعداؤه من قوة الحق.
تعالي حبيبتي نراه ونجلس معه علنا نتعلم منه ومن حديثه ما يثلج الصدر ويجلى الهموم ونتعلم كيف يكون الصبر على المكاره.
الفينيق: أهلا جدي ومعلمي.
جدي: مرحبا بني. كيف حالك وكيف كانت ليلتك؟!
ضحك الفينيق بصوتٍ عال وقال بخير جدي.
هل اشتكت لك مريم مني؟!!
جدي: لا بني ولكنى أطمئن عليكم فحسب. لا تفهمني خطأ بني!!
الفينيق: بل أعلم جدي أنك تخاف على مريم من اقترانها بي ولكني حريص عليها مثل حرصي على نفسي.

جدي: الحمد لله، بني، على أنك حريص على زوجتك وأرجو ألا تطغى قوتك عليها يوما ما ولا تسجن روحها لتكون خادمة لروحك!! لا تؤاخذني بني بهذا الكلام والتصريح لك بالمخاوف التي تدور برأسي.
فأنت تعلم أنك لست مثلنا وأنكم تفوقوا قوة علينا. ولكم قدرات ومهارات وخصائص خاصة لا نستطيع نحن البشر بها.
الفينيق: كيف أرضى بأذية من تملك روحي فهي الملكة التي ينحنى لها القلوب كافة. مريم يا جدي ليست الزوجة فقط ولكنها هي الصاحبة التي تملك قلبا لو وزع ما فيه من حب لكفي العالم كله. نحن لا نقيس الإنسان بحجمه يا جدي ولكننا نقيسه بقلبه وما يملكه من صفاء وبهاء ونقاء وحب.، ومريم تملك أغلى جوهرة.

جدي: الحمد لله يا بني. جئت لكم اليوم حتى أتحدث عن أمر الاستعداد للحرب. فهل أنتم مستعدون لذلك أم مازال الوقت مبكرا؟!
مريم: حقا جدي. هل قررت الملكة نور وقادة الجيش لخوض الحرب ضد إبليس؟
جدي: نعم يا مريم فقد اجتمعنا اليوم وأطلقت الملكة صافرة الحرب حتى يجتمع الكل بتلك الحرب. وحتى تتجمع باقي بلاد المملكة.
الفينيق: نحن معك يا جدي لا تقلق. وروحي على استعداد لخوض الحرب تلك.
جدي: وهل يمكن أيضا أن تعطي مريم روحك وقوتك إن لزم الأمر!

الفينيق: بالطبع جدي وأعلم ماذا تقصد. روحي لابد أن تكون قوية بإيمانها حتى لا يجد إبليس مدخل لمريم ويستولي على روحها بل ويسلبها إرادتها.

جدي: لقد فهمت قصدي يا فينيق.

الفينيق: لا تخف جدي فروحي الآن أقوى من ذي قبل.

مريم تمدني بقوة لا أستطيع وصفها وهي قوة الحب التي لا يستطيع مخلوق زعزعتها أو النيل منها.

احمر وجهي خجلا من حديث جدي وزوجي وقلت هل تخشى علي جدي من نفسي أم عدوي أم من روحي؟. فإن كنت تخشى علي من نفسي فقد روضتها على الطاعة لأوامر الله، ولو كنت تخشى علي من عدوي فلا تقلق لقد قتلته من قبل بداخلى فلا سلطان له علي. أما زوجي الفينيق فذلك هو السكن والراحة وروحي سكنت روحه وروحه سكنت روحي. فهل يمكن أن تخون الروح نفسها جدي؟!!

جدي: لا يا مريم إذا صدق العهد ووثقت الحياة بالثقة والأمانة.

مريم: إذا نستعد للحرب يا جدي وسأذهب أنا والفينيق معك للقاء الملكة حتى نضع الخطط وندرس طريقة لهزيمة ذلك العدو اللدود.

فهل تأذن لنا جدي حتى نتهيأ ونذهب معك.

جدي: تفضلا وأنا بانتظاركم.

نظرت مريم للفينيق وقاما سويا حتى يتهيأوا للذهاب. ودخلوا غرفتهم.

مريم: ما رأيك بما قاله جدي؟! هل الحرب قرار صائب الآن وبهذا التوقيت؟!

الفينيق: في بعض الأحيان لابد أن نفاجأ العدو حتى يختل توازنه ولا يستطيع أن يحشد جنوده ويعيد ترتيب صفوفه.

مريم: إنك تقصد عنصر المفاجأة.

الفينيق: بالضبط حبيبتي.

مريم: هل ستمدني بالقوة إن لزم الأمر أم ستتركني أخوض الحرب وحدي؟!

الفينيق: هل تشعرين أنك وحدك الآن وهل ينتابك ذلك الشعور الموحش بالغربة كما كنت من قبل؟!

مريم: حقيقة لا أشعر سوى بالأمان معك. ذلك الشعور الذي افتقدته بعد أن أخذتني من أمي.

الفينيق: مازلت أري الطفلة البريئة التي هربت خلف الصخرة ورق قلبها لحالي وأخذت من دموعي حتى تطيب جروحي. وكيف كنت أخاف عليك من نسيم الهواء وأحلق حتى أتلقاك عندما تقذفين نفسك بالهواء من الشرفة. وكيف كنت أغضب منك عندما أراك ضعيفة وأنت تملكين القوة من داخلك.ولو كان هناك وقت لكنت أخذتك بعالم السحر والجمال حيث العشاق يرتون من نبع الحنان. ولكنت رقصت معك على نغمات أوتار القلوب السعيدة. وكنت جعلتك تشاركي الزهور والأغصان ربيعها. فهل هناك مزيد من الوقت لنا نختلس من الحياة بعض من اللحظات السعيدة.لكي أسكن إليك، أنهل من نبع حنانك ومن فيض عذوبة روحك.

مريم: نستطيع أن نختلس بعض اللحظات الحلوة التي تعطيني قوة آلاف المحاربين. ورقصت بين ذراعي زوجي وأغمضت عيناي وسبحت ببحر العشق وأحلام السعادة حيث اللذة الحلال. استغرقنا بعض اللحظات ولكنها كانت دهرا بأكمله. فكلما كنت بين زراعى زوجي فكلما أنار وجهي بنور الهوى.

تأهبت وذهبنا أنا وزوجي مع جدي للملكة بتلك العربة الطائرة بالهواء وكان يقودها حصان أبيض مجنح.

استقبلتنا الملكة والأميرة ريم وكل من بالمملكة بالفرحة والسعادة وكأننا كنا نحلق بالهواء من فرط الاحتفال بنا وفرط سعادة الجن المحيطين بنا..
دخلت القصر وكان الفينيق بهيئته البشرية البهية وجماله يفوق الأنظار، يدي بيده وجدي يسير بجواري. حتى وصلنا إلى ساحة القصر فوجدت قائد الجيش نصر هناك هو ومجموعة من القادة فأخذنا إلى قاعة كبيرة يتوسطها
طاولة دائري وحولها كراسي كثيرة فجلست الملكة وجلسنا جميعا حتى نتداول ونتشاور بأمر الحرب.
الملكة: لقد إتخذنا القرار بالحرب ضد إبليس وجنوده.
بعد أن أمدنا الشيخ محمود بكل المعلومات والخرائط لمملكة الشيطان.
قائد الجيش، نصر: ولكننا لا نعلم كم عددهم وما هي أسلحتهم ومن هم حلفاؤهم.
الملكة: إذن لا بد أن نزرع وسطهم جاسوس لصالحنا قبل البدء بالحرب عليهم.

الفينيق: ومن هذا الذي سيدفع حياته ثمنا للخيانة مولاتي. فعهد الجن أنهم أنقياء لا يتلونون.

الملكة: إن البشر يفعلون الأعاجيب يا فينيق. لقد أعطاهم الله قدرة غريبة على التلون بل وضبط النفس والتحكم بها.

الشيخ محمود: ضبط النفس يحتاج إلى تمارين واختبارات كثيرة حتى يتعلم الإنسان الكثير من الأمور.

الملكة: أعلم، وأعلم أيضا أننا بصدد الاختيار أن نخوض تلك الحرب أم لا.

أنا: هل تلمحين إلى شيء مولاتي؟!

وهل تقصدين أن واحد منا أنا أم جدي لابد أن نقوم بتلك المهمة وأن نكون نحن جاسوسين على مملكة الشيطان ؟

الملكة: لم لا فأنتم تملكون أسلحة تخاف منها تلك المخلوقات البشعة.

أنا: إذن لن نكون جواسيس بل سنكون مصدر رعب لهم بتلك الأسلحة.

جدي: أعلم حلا رائعا بل أعلم كيف أجند معكم،

أيتها الملكة يوجد عالم خفي يكرة إبليس اللعين.

الملكة: حقا وما هو.

جدي: إنهم أرواح الأموات. فكلهم ناقمون على ما فعله الشيطان بهم. كلهم يتعذبون الآن ويتمنون أن تتهيأ لهم الفرصة للانتقام منه ومن أتباعه.

الملكة: وكيف يحدث ذلك؟

جدي: عندما كنت أهرب من أتباع إبليس وأفتح تلك الفجوات بين العوالم وجدت ذلك العالم وتحدثت مع أميرهم وعرفت

قصتهم وكيف يتعذبون الآن بوادي الغبراء. وأنا أملك ذلك السيف، سيف سيدنا سليمان، فإن أقنعتهم بخوض الحرب وخضعوا للسيف بعد إرادة الله. ستحصد أرواحهم العطشى للثأر جنود إبليس وأتباعه كلهم.

مريم: وهل ستذهب وحدك جدي؟

فأنا لن أتركك وحدك أبدا بعد اليوم.

جدي: إنه قدري يا مريم. فأنا من صنعت ذلك الوحش بقلة إيماني.

الفينيق: لن أتركك جدي بهذه الرحلة وسوف أكون رفيقك بها.

جدي: وهل ستترك زوجتك وحدها وتتخلى عن رفاهية النعيم لتخوض قحط النفوس وعذابها.

الفينيق: بل سنخوض نحن الثلاثة تلك الرحلة ولعلنا نحصد الكثير من الحلفاء لخوض تلك الحرب.

جدي: وهل تقصد بالثلاثة أنا وأنت ومريم؟

الفينيق: نعم.

القائد نصر: سأرسل معكم خير الجنود التي نملكها وسوف أرسل معكم القناص حمزة. فهو أسرع جندي يرمي السهام فتصيب الهدف بلحظة. وسوف أرسل معكم ساحر المملكة، آتون، فهو يملك درع النور ورمح الأمل.

جدي: إذن لنستعد بالصباح لفتح الفجوة بين عالم الجن وعالم الموتى.

الملكة: فلنستعد إذن حتى نتحالف جميعا ضد إبليس وأعوانه. في الاتحاد قوة والتفرق ضعف. ندعوا الله أن يلم شمل الكون كله حتى تنتهي تلك الحرب.

ذهبنا لنستعد لرحلة جديدة، بل مشقة جديدة بعالم غيبي آخر لا نعلم عنه شيء سوى أن هناك أرواح تتعذب وقلوب تحترق ندما على أنها أنصتت لصوت الشيطان وأغواها فضلت الطريق حتى النهاية وضاعت الفرصة بالتوبة فعضت الأنامل من الندم على ما فات من تفريط في حق الله.

***

عالم الموتى

كلنا موتى بتلك الدنيا حتى يرتوي القلب من رحيق الإيمان. حتى ننزع الدنيا من قلوبنا، حتى نتمنى أن نرى وجه الله ولا نخاف بالحق لومة لائم، حتى نكف عن الخداع، حتى نتوقف عن الاستعانة بغير الله، حتى نتذوق حلاوة الصدق ونستشعر مرارة الكذب وحتى نعترف بأننا لا شيء أمام ملكوت الله وكيانه وجبروته ونتوقف عن تحدي الذات الإلهية، ونتعلم كيف نصغي للضمير الحى ونتعلم أن نلوم أنفسنا، لا أن نلوم الغير على ما فعلناه بأنفسنا.

ذهب جدي لغرفته وهو يستعد لفتح الفجوة لعالم الموتى.

وذهبت أنا وزوجى الفينيق إلى بيتنا لنستعد للرحلة.

فور وصول زوجى وأنا إلى بيتنا، جلست وأنا أضع كفي على وجهي، لا أصدق ما حدث ولا أصدق أن زوجي سيكون ظهري بتلك الرحلة وتلك المخاطر، يجازف ويدخل معي عالم الموتى حيث سجون الأشجان والأحزان، حيث النيران البشعة، تعلو تلتهم الأرواح، وامتلأ كفي بدموعى وتسربت من بين أناملي؛ فلاحظ الفينيق حزنى و طار من مكانه يحتضن قلبي ويجفف دموعي ويقول: لماذا تلك الدموع يا نور الفؤاد؟

قلت: ليس حزنا وإنما هي الإعجاب والفرحة.

قال: بم!

قلت: بك

قال: لم!

قلت: لم تتركني وحدي واخترت أن تكون ظلي وكهفي وملاذي. ألم تعلم أننا نحن البشر كثير ما يتخلى عنا الجميع وقت الحاجة أو الشدة. ونحزن لأننا تخيلنا أننا سنجد أقرب الناس إلينا بجوارنا ولكن سرعان ما يختارون أنفسهم ويبتعدون عنا. لكنك اخترتني ولم تتركني وحدي، وكأني روحك التي تلازمك ولا تستطيع فراقها.

قال: كيف أترك من ملأت أركان قلبي بحبها، وشاع نقاء قلبها قلبي، وأضاءت مهجتي، ورضيت بي زوجا لها وهي الملكة، ملكة توجت عرش قلبي وجعلتني ملكها.

فكيف لا أكون حارسها وخادمها وأدافع عنها وأفديها وقت الخطر.

قلت: كم أنا محظوظة يا ربي!!

من نعمة السعادة التي غمرت قلبي وذلك الرزق العظيم وهو زوجي.

انحنيت أقبل يديه، فرد كفيه ونمت بأحضانه قريرة العين كطفلة وجدت ملاذها بين ذراعي أبيها.

وظل الفينيق مستيقظا يرعاني وينظر إلي ويحنو بلمساته الحانية وأنامله تتخلل خصلات الشعر الذهبية.

وظل جدي يستعد ويرتب كلماته ويجهز تلك المياه التي يقرأ عليها آيات القرآن وتلك الأدعية التي من الله عليها بها حتى تكون لنا حصنا من أرواح الشر المعذبة بذلك العالم.

قام جدي وتوضأ بعد ذلك وفرد سجادة الصلاة متوجها للقبلة وأخذ يصلي ويدعو الله بالسجود والقيام وهو يقول: اللهم إنك مالك تلك العوالم وقد تحداك عبدك إبليس ولم يرضخ

لأمرك و أذية بني آدم وآدم و دفع الإنسان ثمن الخطيئة الأولى.
ادفع يا الله لنا بجنود من قبلك واجعل أرواح الموتى ترضى بالرضوخ لنا حتى تقتص من عدوك وعدونا.
ظل يرفع يديه للتضرع لله حتى يرضى ويمدنا بالعون والمدد الإلهي الأعلى.

لاح نور الفجر واستعد الجميع للرحلة..ذهبنا على الفور إلى القصر حيث تجمعنا أنا والفينيق وجدي وآتون ساحر المملكة والقناص حمزة...
تجمعنا بساحة القصر و كنا كدائرة يتوسطها جدي وهو يجلس بمنتصفها يرسم تلك الأشكال، يتلو تلك الآيات، يفتح كتاب الموتى ويتلو باسم الله الأعظم؛ ليفتح ذلك الباب..وفجأة ظهرت تلك الفجوة بالهواء حولنا وابتلعتنا كما تبتلع الروح رحيق الحياة.
كنت اطبق على يدى زوجي الفينيق بقوة وكان يربت على يدي بحنو وكأنه يقول لا تخافي فأنا بجوارك.
دخلنا تلك الفجوة ودارت بنا دوامات الزمن ونظرنا حولنا ونحن نتقلب بين الفجوات؛ لنرى الماضي والحاضر والمستقبل حيث كل واحد منهم بدوامة منفردة فسبحنا ونحن لا نعلم غير أننا ببوتقة كبيرة كل عالم يشغل منها حيزا.
دفعتنا تلك الموجة الزمنية إلى كوكب وعالم قحط حتى الأشجار هناك يابسة عارية تشكو الفقر وتفتقر إلى الحياة.
ظللنا ننظر حولنا ونكتشف عالم جديد يملأه خراب النفوس وتلك الأعمال التي تودي بصاحبها إلى ذلك العالم حيث الظلام والنار والعذاب.

أشار لنا جدي بالسير باتجاه الشمال، فسرنا جميعا وراء جدي نصعد تلال ونهبط على أرض منخفضة ينبعث منها رائحة الدم ويصعد منها سخونة وكأن جوفها يحترق. حتى وصلنا إلى جبل ضخم تحته بوابة من معدن صلب أملس في وسطه دائرة بها خمس رموز وأشكال حيوانات مختلفة لم أرى لهم مثيلا من قبل.
تقدم جدي وأخرج كتاب الموتى وأخذ يرتب تلك الرموز وتلك الأشكال حتى سمع حسيس الأرواح خلف البوابة وأخذت تتحرك ببطء حتى انفتحت. ووقفنا على بعد خطوات منها خوفا من أن يكون هناك أية أفخاخ.
أشار جدي لنا بالسكون وأن نستعد إذا هاجمتنا تلك الأرواح. ودخل جدي وهو يمسك بقبضته سيف سيدنا سليمان. وأخرجت ذلك الخاتم بفصة الزمردي ووضعته بإصبع يدي.

شعر الساحر آتون بقوة خارقة تكاد تسحبنا إلى أسفل الأرض ولكنه وضع رمحه و قال باسم الله الظاهر أن يظهر ما خفي منا. وظهرت تلك الأرواح بهيكلها المحترق، يتساقط من على عظامها بعض من اللحم المهترئ. رأيناها وهي حولنا بكل مكان وكان هناك تلك الدياب السوداء بأنيابها الحادة وعيونها الحمراء وهي تستعد للقفز علينا والتهام لحومنا.

تجمعت تلك الأرواح حولنا وكان جدي قد دخل ذلك الجبل. فاندفعت ووقفت بالمنتصف ورفعت يدي بالخاتم فظهر ذلك الضوء الموصول بالسماء لينير عالم الموتى لأول مرة؛ فوضعوا أصابعهم العارية من اللحم فوق أعينهم. تراجعوا جميعا للوراء

وأحاطت بنا هالة من الضوء تحمينا ودخلنا جميعا إلى داخل الجبل.

وأطلق الساحر آتون رمحه فنثر الضوء بباب الجبل فتوقفت الأرواح وتجمدت من ذلك النور الإلهي.
ظللنا نسير بباطن الجبل حيث الأفاعي التي تنتشر بكل مكان.
تنظر إلينا تكاد تلتهمنا بأعينها وتزحف باتجاهنا
وترفع رأسها وتخرج ألسانتها وتصدر ذلك الفحيح وتلك الأصوات المفزعة ولكني رفعت يدي بالخاتم فهربت بتلك الجحور وتلك الفجوات الصغيرة.

سرنا ببطء وكانت يدي بيد الفينيق حتى وصلنا إلى ساحة كبيرة مليئة بنساء كثيرة يلتهمن ويأكلون لحوم البشر.. ومع كل واحدة مطرقة تطرق بها على رأس الأخري تهشمها. نظر الى الفينيق وهو يقول هل أنتم معشر البشر تفعلون كل هذه الذنوب؟
قلت:لماذا هم يفعلون ذلك؟!
قال: هم يغتابون الناس ويأكلون لحوم بعضهم بالكلام.
هم لا يهتمون بالأعراض، يخوضون مع الخائضين.
قلت: وما العمل الآن؟ إن هم انتبهوا لنا ستلتهم أرواحهم أجسادنا وسنكون وجبة شهية لهم.
قال: حافظوا على هدوء أرواحكم حتى لا نفزع تلك الأرواح القذرة وهي تأكل جيف البشر.
سرنا بخطي واجفة وكان حمزة الجنى يحمل قوسه مستعد لرمي السهام الحارقة الناسفة.

في أثناء سيرنا داست قدمي على عظمة هشة فأصدرت صوت تكسير فانتبه إلينا بعض من تلك النساء. تقدمن بأرواحهم حولنا يشمون رائحة الدم الطازج بعروقنا. فهبوا جميعا فأطلق حمزة سهامه وكانت مثل وابل المطر الذي يهلك الزرع والشجر.

أسرعنا بالهرب منهم وهم يتساقطون الواحد تلو الآخر تخترق سهام النور صدورهم وتنصهر عظامهم. كنا نلتفت وراءنا ونحن نلوذ بالفرار من تلك الفئة التي تلهث وراء لحوم البشر؛ تلتهمها حتى دخلنا إلى ممر طويل على جانبيه غرف عليها أقفال غليظة ويصدر من وراء الأبواب الموصدة أصوات تستغيث. كنا نسمع تلك الضربات العنيفة وكأنها أصوات أسواط أو كرابيج تسقط على أجساد المسجونين بتلك الغرف.

نظرت من فتحة أعلى الباب فوجدت أشخاص مسلسلين بالأصفاد وأمامهم طعام من شوك ومياه تغلي. وكان هناك سجان غليظ يضربهم بذلك السوط ويضع ذلك الطعام بأفواههم ويسقيهم بتلك المياه التي تغلي فترتفع أمعائهم وهي تغلي.

تقيأت من هول المنظر وكيف لبشر أن يتحمل ذلك العذاب وما الذي فعله الإنسان حتى يتلقى العذاب الذي يشوي البطون.

سحب الفينيق يدي وسرنا نخطو بخطوات واسعة وحمزة وآتون يحرسون أرواحنا بكل قوة.

تعجب الفينيق من ذلك العذاب

وقال: لقد كنتم أنتم البشر تأكلون الحرام وتستحلون أموال اليتيم بدون وجه حق.

فأصبح الجوف وما فيه من حرام فلابد أن يتذوقوا من الظلم الذي ذاقه المظلوم الذي حرم من حقه وذاق مرارة العيش فأذاقهم الله

المرارة والعذاب بكل لقمة خبز أو شربة ماء من مال حرام فشوت بطونهم ولم يتذوقوا أبدا نعيم الحلال.

كل هذا وجدي الذي سبقنا داخل الكهف، لا نعلم عنه شيء بل نبحث بدهاليز ذلك الجبل عن جدي.
أخذتنا أقدامنا نحو منحدر شاسع ووقفنا على حافته ننظر إلى أسفله ولكننا لم نرى سوى الظلام بداخله فرفع الساحر آتون رمحه وهو يتمتم بكلمات النور المنبعثة من لهيب الشمس الأبدية فأنار المكان كله. فلمحت جدي على الجانب الآخر من المنحدر يقف يتحدث مع ملك بأجنحة سوداء كبيرة كل ريشة فيها تحمل عين تتحرك بكل اتجاه. فرفعت خاتمي وساعدني آتون حتى ندخل تلك الفقعة من الهواء على شكل بالون منتفخ، يحملنا إلى الجانب الآخر حيث جدي وملك الموتى يتحدثان.

وصلنا إلى الجانب الآخر فانتبه إلينا ملك الموت وقال:
كنت أعلم أنكم قادمون منذ زمن بعيد.
ولكني لم أكن أعلم أنكم على هذا القدر من الشجاعة، تأتون بأقدامكم إلى العالم الذي يفر منه الجميع.
انحنيت تأدبا للملك وقلت: كلنا سنراك يوما ما وكلنا سنعيش تلك اللحظات التي تنتزع فيها أرواحنا من بين خلايا أجسادنا.
ملك الموتى: ولكن جدك جاء يعرض علينا أن نخوض معه الحرب ضد إبليس اللعين.
قلت: لم لا، وإبليس هو من يغوي البشر حتى يتذوقوا ذلك العذاب المهين.

ملك الموتى: لا ليس وحده المسؤول عن غواية البشر.
قلت: ومن غيره يستطيع فعل ما فعله هو وجنوده بالبشر.
ملك الموتي: إنها النفس البشرية. تلك التي وضعها الله بالإنسان حتى يخوض الاختبار وما إبليس إلا أداة توسوس وتحرض ولكنه لا يجبركم أنتم البشر على فعل الأشياء المنكرة فالله أعطاكم حق الاختيار. الحق في أن تتبع الحق أم لا.
قلت: لكنه هو من يرسم الخطط ويوقع البغضاء بين الناس.
هو من تكبر وأقسم بالذات العليا على أن يجعلنا بأسفل سافلين.
هو من يبعث بجنوده لتفرق بين الزوج وزوجته، هو من أعطى الحق لنفسه حتى ينفث بالحزن على قلوب المحبين.
ملك الموت: ولكننا ليس لنا دخل بالحرب الدائرة بينكم.
نحن هنا دار جزاء لا قصاص وانتقام.
قلت: الموتى لن يحصلوا على صكوك الغفران التي ينشدونها ولعل الله بعثنا حتى يعطيهم الفرصة الثانية.
ملك الموت: وما المقابل من نهوض أرواح الموتى المعذبين واشتراكهم بتلك الحرب.
قلت: ألم تسمع عن الأمان الذي تنشده الروح بعد أن ذاقت العذاب الأليم. ألم تسمع عن ذلك الصديق الحميم الذي يرجو أن تكون معه بالجنة. فلربما كنا نحن ذلك الصديق المجهول لعالم مجهول يختفي عن الأنظار. ولعل الله بعثنا هنا حتى يروا كم من الرحمات الإلهية حتى وهم يتعذبون.
جدي: هل توافق يا ملك الموت أن تهب الأرواح المعذبة تلك الفرصة مرة أخرى..وتساعد مملكة النور والبشر بالتغلب

والقصاص لآلاف المعذبين حتى لا تنتشر ظلال الظلام ويفقد الإنسان إيمانه باللّه.

ملك الموت: اللّه لا يحتاج إيمانكم، أنتم من تحتاجون إليه ليس هو.

جدي: ولكن عندما يسود الكفر والظلم ويتحكم بالأرواح وتنقلب الموازين ويبقى الحق هو الباطل والباطل هو الحق، كيف يعرف الإنسان اللّه عندئذ!!

يعرفه بوجوده عندما ينتشله من الظلام ويضعه على الطريق الصحيح. عندما يرى عدل اللّه في الأرض ويقر عين المظلوم وترتاح نفسه.

ملك الموت: لكني لا أستطيع أن أطلق سراح تلك الأرواح دون إذن من اللّه. سأرجع إليه أسأله ثم سآتيك الإجابة.

جدي: سأنتظر الرد منك ملك الموت.

أطلق الساحر آتون رمحه وشرع يتوسل إلى الملك الأعظم ويرسل در الدعاء. وكان جدي ينظر إلى تلك الفجوة السحيقة المظلمة ويقول كيف للإنسان أن يبيع النعيم الدائم بالظلام الدامس والفقر وذلك العذاب.

ونظر الفينيق إلي نظرات الحائر المرتبك ويقول كيف للنور أن ينطفئ ويطغى ذلك المخلوق المصنوع من النار. وكيف للإنسان أن يطيعه بغرام زائف

« إن عذابها كان غراما.»

وكان حمزة تلمع عينيه بين الحين والآخر يطبق على قوسه حاملا جعبة السهام على كتفه. ينظر حوله ويراقب عن كثب تلك الأرواح المعذبة بأفعالها.

جلست على الأرض الجدباء وشعرت وكأن الدنيا تدور بي. وكل من حولي يترنح وكأنهم ظلال تحركها الرياح.
كنت أسمع نداء زوجى وجدي وصيحاتهم وتوسلهم لي بالبقاء واليقظة حولهم ولكنى كنت أشعر وكأن هناك من ينتزع روحى بالقوة.
تحول زوجى الى طائر الفينيق وأحاطنى بجناحيه وهو يبكي على جسدي حتى غمرتني دموعه. فدبت بي الحياة من جديد.
كانت دموعه دموع حب يخاف منها الظلام.
ولكنى شعرت أن إبليس يقول لي أنه يعلم نوايانا.
شعرت بأن هناك جاسوسا من الأرواح المعذبة هنا بالجحيم قد أبلغه بوجودنا.

أفقت و تجولت بناظري حولى فوجدت جدي وزوجي يلتفون حولي وحمزة يقف على بعد خطوات يراقب المكان والساحر آتون يتضرع إلى الله.

هبط ملك الموت أمامنا وأشار إلى جدي ولي بالمثول أمامه فقال:
ذهبت إلى السماء السابعة وعرضت الأمر على الله. فقال:
لقد سمعت تحاوركم ولقد قال الله أنتم أحسنتم الظن به وهو عند حسن ظن عبده به فوافق على أن تهب الأرواح من رقدتها عندما تطلبون ذلك للقصاص ممن غووا البشر. استبشر جدي وكادت قدماه تطيران من السعادة الغامرة برضا الله عليه.
حسنا سنبلغ الملكة نور بأنكم ستكونون حلفاء لنا بتلك الحرب. ولكنى أريد صكا وعهدا مكتوبا منك أيها الملك حتى تصدق الملكة أنكم حلفائها.

مد الملك جناحه لجدي وقال خد منها ريشة وأعطاها للملكة وهي ستعلم أننا سنكون بصفها بأمر من اللّه.
انتزع جدي ريشة وكان بها عين واسعة تتحرك بكل اتجاه. فوضعها جدي بجيبه وهو يردد كلمات الشكر للّه.
تمتم جدي بكلمات فظهرت تلك الفجوة الزمنية. دخلنا فيها وبغضون ثواني معدودة أصبحنا بساحة قصر مملكة النور.

هرول الجميع وكأنهم لا يكاد يصدقون أننا ذهبنا إلى تلك الرحلة وعدنا سالمين.
جاءت الملكة نور وقائد الجيش نصر والأميرات والحراس وكل من بالقصر ينظرون إلينا بإعجاب وانبهار. وعندما تأكدت أنني بالقصر غفت عيناي ولم أشعر بقدمي وسقطت على الأرض مغشيا علي.
حملني الفينيق على الفور إلى غرفتي التي كانت بالقصر. وأمرت الملكة بطبيب القصر بالحضور على الفور.
جاء الطبيب وفحصني وقال أني مثقلة بالهموم والأحزان وأن هناك مس شيطاني لمسني ويحاول الدخول إلى بوابة روحي ولكني أقاوم بقوة، وكلما زاد إصراره على الدخول زادت قوة روحي وضعفت قوة جسدي.
الملكة: وما العمل أيها الطبيب؟!
الطبيب: هناك حلا واحد أيتها الملكة.
الملكة: وما هو؟
الطبيب: أن تذهب للجهة الغربية من المملكة.
الملكة: الجهة الغربية؟! أنت تعرف أنها مكان لا يستطيع أحد من البشر الدخول إليه.

الطبيب: أعلم ولكن إن تركنا مريم بهذه الحالة سوف تفقد رونق جمالها وتتشعب الظلال السوداء بعروقها، بل ستتحول إلى خادمة للشيطان إن هو تمكن من روحها.
الفينيق: أنا من سيأخذها إلى هناك. أنا من يحملها على ظهره وبين جناحيه حتى تتغلب على ذلك المس الشيطاني اللعين.
الملكة: حسنا فلتستعد بالصباح للذهاب إلى الجهة الغربية حيث الداء والدواء بين العوالم.
بقيت أنازع تلك الروح الشيطانية وأنا راقدة على فراشي بأحلامي. كنت كمن يهرول بالصحراء حتى وصل إلى مدخل دخلت فيه فوجدت ذلك الطائر يفرد جناحيه فارتبكت أوصالى وهرعت ابحث عن مكان أختبئ فيه.
فحفرت حفرة وغطيت نفسي بالرمال وجاء ذلك الطائر وكان له وجه فأر كبير يمشي متثاقلا ونام بالقرب من المكان الذي اختبأت فيه.
حاولت الهرب عندما تأكدت أنه نائم وأطلقت ساقى للريح وعدوت أجري حتى لاحظ ذلك الطائر وجودي فأطلق جناحيه يطاردنى وأنا أجري بكل سرعة حتى خرجت من تلك الفتحة التي دخلت منها.
بدأ العرق يتصبب من جبهتي بغزارة وكان جدي بجواري يمسح قطرات العرق ويقرأ القرآن ويدعو الله.
حتى أخذني الفينيق حاملا إياي بين مخالبه للجهة الغربية من المملكة.

مملكة الغرب

أخذني الفينيق إلي مملكة الغرب حيث الداء والدواء، حيث العرافات والعرافين، حيث العالم الذي يربط السحر بالمسحور.
طار بي محلقا فوق سماء يمتزج لونها بالأزرق والأحمر وكأنهم خطوطا ترسم مسار البشر وأفعالهم.
هبط بي بأعلى قلعة حيث الساحر الأعظم أبانوب.
أبانوب كان صديق للملكة نور حيث بعثت إليه ترجوه بمساعدة مريم.
استقبل أبانوب الفينيق وأدخلني إلى غرفة ووضعني الفينيق على سرير وكان جسدي ينتفض وتزداد الظلال والخيوط السوداء بجسدي وتتشبع بكل مكان. كانت أنفاسي تختنق وعيوني تزداد سوادا.
وكنت بحالة من الهيجان أصيح بأعلى الصيحات.وكأني أستغيث من ذلك العذاب الذي يقتلع روحي.
كان شعري يتطاير ويقف كأني عجوز شمطاء. ربطني الساحر أبانوب بالسرير. وأخذ يقول للفينيق إن إبليس قد علم بوجودها وقد بعث خادم من أتباعه حتى يجندها له.
الفينيق:كيف ذلك ومريم تملك خاتم سليمان؟!
أبانوب: لابد أنه بعث إليها تابع أرضي يمسها دون وعي منها وعلى حين غفلة.
الفينيق: وما العمل؟
أبانوب: لابد أن تشرب مريم من النهر المقدس.
الفينيق: وأين ذلك النهر؟

أبانوب: إنه هناك خلف ذلك الجبل الثلجي.
الفينيق: سوف أطير إلى هناك؛ أجلب لها ذلك الماء المقدس.
أبانوب: حسنا ولكن احترس من حارس النهر. إنه عملاق ثلجي لا يسمح لأحد بالاقتراب من النهر ولكن خذ ذلك الخاتم إليه وقل له باسم الله الطاهر أن تعطينا قبس من نور الله الظاهر، وتمدنا بعون الله الخفي. وأعطه الخاتم.

أخذ الفينيق خاتم أبانوب وحلق بالفضاء يضرب بأجنحته يسابق البرق لينقذ حبيبته من براثن الشر.
وصل إلى جبل الثلج وعندما حط عليه رأى ذلك النهر المقدس وهو يجري بين ضفاف الثلج. وكأن الشمس تطلع من جانبيه وتشع الحياة بين ضفافه.

نزل من على الجبل بسرعة ولكن قبل أن يصل لينهل من ماء النهر ظهر عملاق الثلج من الجبل الثلجي وهرول إلى الفينيق ليمنعه من الاقتراب.
وقف الفينيق أمام عملاق الثلج وقبل أن يطيح العملاق بذراعه الفينيق أشهر الفينيق خاتم أنانوب.
توقف عملاق الثلج وقال: هل بعثك الساحر الأعظم لي؟!
الفينيق: نعم وقال أبلغك رسالة منه.
العملاق: وما هي؟
الفينيق: هو يقول لك باسم الله الطاهر أن تعطينا من قبس النور الظاهر و تمدنا بعون الله الخفي.
العملاق الثلجي: لقد أقسم علي أبانوب باسم الله الطاهر ولا أستطيع أن أرفض بعد ذلك القسم.

مد العملاق الثلجي يده و اغترف غرفة من الماء المقدس ووضعها بقارورة و أعطاها للفينيق وهو يقول له. لا تستعملها كلها بل بعض قطرات منها ضعها في فم المريض وبعض منها بعينيه وبعض منها بأذنيه وانثر بعض من قطراتها على جسده.

أخذ الفينيق قارورة الماء المقدس يحملها على جناح السرعة وقلبه يخفق بشدة. يرجو أن ينقذ حبه وزوجته. وترجع البسمة على شفتيها مرة أخري. بل يريد بكل الشوق ان يسمع ضحكاتها البريئة التي كانت تنبع من قلبها الطفولي الصغير.

وصل إلى أبانوب وقال له جئت بالماء المقدس و هيا بنا لنرى مريم.
أخذني الساحر الأعظم حتى أرى مريم مقيدة بالسرير تتلوى من الألم وتصرخ بقوة.
تلى الساحر بعض الآيات وكان جسد مريم ينتفض وعيناها تبكيان ولكن دموعها كانت دماء تختلط بظلال سوداء. وضعت بعض من قطرات الماء المقدس بفمها، والبعض الآخر بعينيها وأذنيها. ونثرت البعض الآخر على جسدها.
هدأ جسد مريم لبرهة من الزمن حتى غفت ونامت. لكن مازال أبانوب يتلو آيات من القرآن بأعداد فردية بشكل متتالي حتى رأيت تلك الظلال السوداء تفارق جسدها وتخرج من فمها.
وتحدثت تلك الظلال إلى أبانوب وقالت: مريم قد تحدت إبليس، وهو يطاردها بكل مكان ولن يدعها هي وجدها محمود سالمين بل سيقتص منهم وقد أرسلني إليها وانتهزت الفرصة هناك

بالعالم السفلي، عالم الأموات، حتى ألمس فقط جسدها الطاهر. فتشعب ظلال الظلام بجسدها ولكنها كانت تقاوم بشدة.
أبانوب: أسأل الله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أن تهلك وتحترق باسم الله الأعظم.
فاحترق تابع الشيطان وخادمه. وتحول جسد مريم إلى الصفاء والبياض مرة أخري. وأصبحت نظرات عينيها كبياض الثلج. وانسدلت خصلات شعرها الذهبي وكأنها أشعة الشمس المرسلة ببداية يوم جديد.
نظرت إلى الفينيق ونور الحب والأمان يتوغل بقلبي ويزداد. تحول الفينيق إلى هيئته البشرية واقترب مني وقال:
الحمد لله أن سرى النور بأوصالك مرة أخرى.
قلت: والله لأنك أنت النور الذي يسري بأوصالي.
قال: أنا المحب الخادم المطيع لمولاتي، أنا الذي انحنى لحب حياتي، أنا بين يديك إشارة ، أنا العاشق إليك مولاتي.
قلت: لو كان البشر يعشقون أزواجهم وزوجاتهم لما كان هناك شيء اسمه الشيطان. لكن أنت من سيظل الهبة التي وهبني الله بها وكأن الله أهداني الحياة كلها عندما وجدت طفولتي بين أحضانك.

تعلقت بعنقه وتعلق بي وعانق كل منا الآخر وكأننا نشتاق إلى أن يسمع كل منا نبض الآخر، بل ويغوص بأحلام الحاضر بين ذراعي حبيب مخلص صادق.

حملني الفينيق بين ذراعيه والتقينا كهالة من النور واختفينا عن الأنظار إلى ساحة منزلنا حيث النهر الفضي اللامع. وارتشفنا

رحيق الحب وتحدثنا حديث لا تمله العين ولا يستطيع اللسان بيانه.
كانت أفعاله أفعال محب عاشق. خاض مخاطر لأجل إنقاذ حبيبته حتى لو هلك بسيف غادر. تلقى سهام الغدر عن محبوبته، ولم يسمح لطيف غادر، أو ظلال الشر أن تنال من قلب محبوبته.
كانوا مثل قوس النور وسهم الحياة. يرتوي كل منهم من نبع الحنان حيث صفاء القلوب ونقائها.
نمت بين أحضانه كعصفور مرتجف بين ذراعيه، كنت مثل النهر الذي يحتمي بشاطئه.

ذهبنا إلى الملكة نور واحتفل الجميع بي وشفائي، وعشنا أيام من السعادة..أخذنا هدنة مع أنفسنا لنسترجع قوتنا. ونعيد ترتيب أرواحنا من جديد. بتنا ننعم بسلام دائم مع أنفسنا نمرح ونلعب ونطلق بنات أفكارنا؛ نرسم بالخيال عالم خال من المتاعب، عالم نتجول داخل أروقته الدافئة بالحب الذي يجمع الجميع.

كان جدي هو التاريخ، تاريخ عصيانه وتمرده على خالقه، فخلق لنا عالم لا نعلم عنه شيء..هكذا نحن نخطأ الخطأ وندفع ثمن ذلك الخطأ باقي العمر، بل يدفعه أجيال وأجيال. فخطواتنا محسوبة وإلا فتحنا تلك الفجوة بين عوالم النفس السبعة.

تمت

الجزء الأول

الفهرس

الجزء الأول ٦
مريم والأبواب السبعة ٦
المقدمة ٧
الظلال ٨
الهواجس ٢٠
طائر الفينيق ٢٣
النور ٢٧
التحدي ٣٧
المرآة ٤٤
صوت إبليس ٤٨
الأسر ٥٦
العودة ٦٥
الزواج ٧٧
القصر ٨٣
عالم الموتى ٩٣
مملكة الغرب ١٠٥
الفهرس ١١٠